نحو مسرح إسلامي معاصر (٥)

مسرحية المغول

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
مقدمة
شخوص المسرحية
المادة التاريخية
المشهد الاول
المشهد الثاني
المشهد الثالث
المشهد الرابع
المشهد الخامس
المشهد السادس
المشهد الاخير

مقدمة

قبل سنوات طويلة طرحت الدعوة التالية (كضرورة) فنية في ميدان الادب الاسلامي عامة ، والمسرحي على وجه الخصوص : (.. ضرورة تحقيق قدر كبير من (التواصل) بين التاريخ والواقع ، اي بين الماضي والحاضر). ان يسعى الفنان الى كسر الجدار الزمني لتعصير الواقعة التاريخية او لنقلنا – بالمقابل – الى قلب التاريخ لمعايشة وقائعه والتفاعل مع معطياتها.

(ان تحقيق هذا التداخل الزمني يمثل ضرورة فنية وموضوعية في الوقت نفسه ؛ ضرورة فنية لانه يجعلنا نقف في قلب الواقعة التاريخية التي تملك حينذاك ، ومن خلال التكنيك الفني المتمكن ، قدرتها على التعبير والتاثير. وضرورة موضوعية لانه سيخرج الفعل التاريخي من سكونيته واسره الزمني ومتحفيته وتسطحه ، ويعيد اليه الحياة كفعل دائم التدفق والتمخض ، فعل يتحرك باستمرار لكي يصب في بحر وجودنا الراهن فيغنيه ويحفزه ويجعله اكثر اصالة بتلقيه الدم الحار من رحم تاريخه هو ، وماضيه هو ، فلا يغدو هجينا).

(لقد تعامل كتاب الغرب وفنانوه الجادون مع تاريخهم ، وبمجرد ان نلقى نظرة متمعنة على نتاجهم التمثيلي والمسرحي في هذا المجال ، فاننا سنجدهم يتجاوزون – في كثير من الاحيان – الوقوف السالب امام الواقعة التاريخية ، الوقوف الذي يسجل حركة التاريخ في جانب ما من جوانبه تسجيلا فوتوغرافيا ، فلا هو يضيف شيئا جديدا ، ولا هو يسعى الى اعادة تركيب الواقعة بما يجعلها اكثر تاثيرية من مجرد عرضها المتحفي الصرف. لقد تجاوزوا هذا الموقف لانهم لا يريدون ان يقدموا لنا عروضا (تعليمية) عن تاريخهم ، فلتلك العروض رجالها ومجالاتها المدرسية المعروفة ، ولكنهم يسعون الى تحقيق قدر من التوافق بين رؤية الفنان البعيدة وامانة العالم والتزامه ، بين الذات والموضوع ، بين ما كان وما هو كائن وما يمكن ان يكون. انهم يتجاوزون عملية رصف الاحداث رصفا عرضيا ، لكي يتوغلوا باتجاه العمق لاستجاشة كل القيم النفسية والتربوية التي يمكن ان يحدثنا عنها الفعل التاريخي وهو يتمخض في صيرورته الدائمة عن مزيد من القيم والمؤثرات والتشكيلات التي تهم الانسان المعاصر وتلامس واقعه واحلامه وامانيه).

(اننا نقرا ، على سبيل المثال ، (بكت) لجان انوي و(الارض كروية) و(ليالي الغضب) لسلاكرو و(انطونيوس وكليوباترا) لشكسبير و(العادلون) و(كاليغولا) لكامي و(هنري الرابع) لبير اندللو و(الذباب) لسارتر و(تاج على ميتة) و(مالا تستا) لمونترلان .. وغيرها .. فنجد انفسنا امام انماط (حركية) من التعامل مع الواقعة التاريخية تتمثل فيها الشروط التي يتحتم على الفنان المسلم ، الذي يسعى الى اعتماد التاريخ الاسلامي في بناء اعماله ، ان يفيد منها ما وسعته

الافادة ، لا سيما وان تاريخنا الخصب يتضمن من الوقائع والاحداث ما يمكن ان يمنحنا المزيد من الدلالات المكثفة والقيم الموحية والمؤثرات التي ترفض ان ياسرها زمان او مكان).

(ان العمل الفني الذي يعتمد الارضية التاريخية ليس – من جهة اخرى – ترفا فكريا او جماليا محضا ، لكي يفصل التاريخ عن الواقع ويعرضه كما لو انه عالم قائم بذاته لا يمنحنا الاجمالية (نسبية) قد لا يكون لها اي تاثير تربوي فعال على تجربتنا الحية المعيشة. ومن ثم فان تحطيم الفاصل الزمني وتحقيق التواصل بين تجربتنا الماضية وحياتنا الراهنة ، سيؤول الى اغناء العمل الفني وتجاوز حدوده الجمالية الصرفة الى الفعل والتغيير والبناء).

(ان الفنان (المادي) يمارس هذا الاسلوب وهو بصدد خلق مؤثرات فكرية وتربوية من خلال ابداعه الفني. ومعنى هذا ان يتحول تاريخنا الى (اداة) تتداولها ايد (غريبة) لم تتواصل مع هذا التاريخ ذلك التواصل الطبيعي الذي يرفض التزييف والتحريف .. ان تاريخنا يتحول على ايديهم الى حاضرنا لكي يعانقه ، لكنه ، بعد ان يصل مرحلة اللقاء والعناق هذه ، يكون قد اضاع هويته وفقد شخصيته).

(وفي مقابل هذه الخطيئة ، وكبديل عنها ، يجب ان يتحرك الفنان المسلم فيكسر جدار الزمن ويصل بين الماضي والحاضر ، بين التاريخ وبين الواقع ، لكي يمنحنا ، من خلال ابداعه الفني ، القيم الكبيرة التي تمكننا من تاصيل شخصيتنا وحماية ذاتنا الحضارية في مواجهة غزو فكري وتربوي لن يلقي سلاحه قبل ان يمحو هذه الشخصية محوا ويدمر هذه الذات تدميرا)[1].

مسرحية (المغول) هذه ، محاولة للوقوف عند واحدة من (اللحظات) المؤثرة في تاريخنا ، تحمل شحنتها الدرامية ، وتمنح الكاتب المسرحي فرصة طيبة للعمل. انها (اختيار) خارج نطاق المساحات التاريخية المبكرة التي صنع منها الكثير من الاعمال الفنية الى حد التكرار. وهي ، فضلا عن هذا وذاك ، تتضمن العديد من القيم الفنية والانسانية التي تحقق تواصلها مع قرننا هذا ، حيث يتحتم علينا جميعا ان (نصمد) ، ان نقاوم (الحصار المضروب) .. الا نستسلم بسهولة لجيوش المغول الجديدة القادمة من المشارق والمغارب. نصمد ، مستكملين الاسباب ، ونترك الباقي على الله ، ذلك ما علمنا اياه رسولنا ومعلمنا (عليه افضل الصلاة والسلام).

يتساءل المرء وهو ينفض يديه من المسرحية : ماذا ؟ لقد انكسرت الموصل ، وهزم قائدها (الصالح) .. لقد انطوى البطل وهو يجابه تحديا اكبر منه بكثير .. فاين المغزى ؟!

والمغزى يكمن ها هنا بالذات .. ففي تاريخ البشرية ، وفي تاريخنا نحن بالذات ، لحظات من التوهج ، قد تمتد اضاءتها وقد تقصر ، وهي على كل الاحوال ستنتهي – كفعل

---

(١) انظر بالتفصيل بحث (نحو آفاق تربوية في عرض التاريخ الاسلامي على الشاشة الصغيرة) (ص ٧٥–١٠٤) من كتاب (مع القرآن في عالمه الرحيب) دار العلم للملايين ، بيروت–١٩٧٨م.

تاريخي – الى الانطفاء. ليس ثمة دوام في حركة التاريخ ، انها (المداولة) التي تحدث عنها كتاب الله ... التحول الدائم من صيغة لأخرى .. حكاية المسلسل الذي لا ينتهي من التوهج والانطفاء.

وما دام الامر كذلك ، فيكفي ان تشتعل الارادة البشرية ، ان يرد على التحدي وان يستجاب لامر الله : **(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)**[٢].

ان ما حدث للموصل ، والمصير المفجع الذي انتهى اليه ملكها (الصالح) يحدث اليوم، ولسوف يحدث غدا .. وان مغول القرن العشرين يحاصرون اليوم مدننا .. يشددون قبضتهم على مواقعنا وحصوننا .. يكفي ان نتذكر بيروت والمخيمات .. يكفي ان نمد ابصارنا الى افغانستان وارتيريا واوغادين واوغندا وكشمير والفيليبين .. لكي نعرف ان (المسرحية) لا تاسر نفسها في بيئة محددة في الزمان والمكان .. انها دراما كل زمن مسلم وكل مكان .. قد تنتهي المقاومة بالانتصار ، وكثيرا ما تحقق الوعد ، وقد تؤول الى الاندحار ..

ولكن شرف الانسان المسلم يظل ، مع استكمال الاسباب وليس قبلها بحال ، فوق احتمالات الربح والخسارة ، ان مداه اوسع بكثير وابعد بكثير ، لانه مستمد من كلمة الله الباقية!

لقد انطوت صفحة الرعب المغولي وخرج الاسلام نفسه منتصرا بعد اذ طوت ارادته المغول .. ولم يكن بمقدور الضمانات الجزئية والتفريط بالشرف ان تصنع الانتصار .. لقد صنعه – والحق يقال – كل الذين ضحوا من اجل الا ينحني هذا الدين لاية وثنية في العالم ..

وكانت الموصل ، وملكها (الصالح) من بين من صنعوا الانتصار .. تلك هي (الحكمة) التي يمكن ان يعثر عليها المرء وهو يتساءل عن مغزى المسرحية ، وعن ارتباطها (الفني) (بالمعايشة التاريخية) ، و(التعصير).

ترى كم من اللحظات المؤثرة في تاريخنا الطويل ، تحمل دراميتها ومغزاها وتنتظر الاقلام التي تصنع منها المزيد من الاعمال ؟

---

(٢) سورة غافر ، (الآية ٧٧).

(شخوص المسرحية)

الملك الصالح ركن الدين	حاكم الموصل ٦٥٧-٦٦٠هـ.
اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ :	
علاء الملك	ابن الملك الصالح
علم الدين سنجر	قائد الملك الصالح
شهاب الدين احمد	رئيس ديوان الملك الصالح
الظاهر ركن الدين بيبرس	سلطان المماليك في مصر والشام ٦٥٨-٦٧٦هـ.
صندغون	القائد المغولي الذي تولى حصار الموصل.
صدر الدين التبريزي	احد قادة الجيش المغولي لدى حصار الموصل.
تكودار	قائد المنجنيقات المغولية.
الزين الحافظي	طبيب شامي مملوكي التحق بخدمة المغول.
المندوب المغولي في الموصل.	
امراء وقادة وحجاب وجند	
واهالي .. الى آخره ..	

المادة التاريخية

استقيت المادة التاريخية لهذه المسرحية من المصادر التالية :

تاريخ مختصر الدول	**لابن العبري**	**(ت ٦٨٥هـ)**
جامع التواريخ	**لرشيد الدين الهمذاني**	**(ت ٧١٨هـ)**
ذيل مراة الزمان	**لليونيني البعلبكي**	**(ت ٧٢٦هـ)**
العبر وديوان المبتدأ والخبر	**لابن خلدون**	**(ت ٨٠٨هـ)**
السلوك لمعرفة دول الملوك	**للمقريزي**	**(ت ٨٤٥هـ)**
شذرات الذهب	**لابن العماد الحنبلي**	**(ت ١٠٨٩هـ)**

المشهد الاول

(ضحى اليوم السادس من صفر عام ٦٦٠هـ ، دار المملكة المطلّة على نهر دجلة في مدينة الموصل يتوسطها ايوان واسع مزين بافاريز عريضة من الخط الكوفي ، ينفتح على النهر من جهته الشرقية وعلى المدينة من جهته الغربية. على اريكة واسعة في صدر الايوان يجلس الملك الصالح امير الموصل. وعند جداري الايوان الشمالي والجنوبي صفت ارائك اخرى جلس عليها عدد من القادة والامراء وكبار الموظفين).

الملك الصالح : **(يرفع رأسه عن منشور مفروش بين يديه) انهم قادمون اذن ؟**

القائد علم الدين سنجر: **يوم واحد ، او اقل ، وتخفق راياتهم عند مشارف المدينة ، على الطريق القادم من بغداد.**

شهاب الدين احمد : **اذا اذنت لي ايها الملك قلت ان الامر في جملته لا يحتاج إلى لحظة واحدة من التردد ..**

الملك الصالح : **كيف ؟**

شهاب الدين احمد : **ما فعله ابوك رحمه الله .. الملك بدر الدين لؤلؤ .. ان الجميع يشهدون له بالخبرة والدهاء ..**

علم الدين سنجر : **(بشيء من الانفعال) ولكن ..**

الملك الصالح : **(يبتسم) دعني .. فانا اولى الناس بالتحدث عنه !**

شهاب الدين احمد : **لقد عرف كيف يختار الطريق المناسب ، فكسب رضاهم وجنب الموصل مصيرا مفجعا .. انها محنة سوداء .. الاعصار الذي يكسر من لا ينحني له ويدعه يمر ..**

علم الدين سنجر : **(بالانفعال نفسه) الملك الصالح يريد ان يتحدث .. دعنا نستمع لرايه.**

الملك الصالح : **دعه يا علم الدين ، فاني احب ان اسمع كل ما عنده .. كل ماعندكم انتم جميعا .. ان قراري الاخير لا يمكن بحال ان ينفصل عنكم ، او يقوم على الظن والتخمين .. اريد ان اجمع المعلومات والتفاصيل واخبر الاراء ووجهات النظر ..**

علم الدين سنجر : **ولكن ما سيقوله تعرفه جيدا ايها الملك ..**

الملك الصالح : **هذه لحظات يتحتم ان تستعاد فيها الاراء مرارا ..**

شهاب الدين احمد : **بعض المسافرين الذين قدموا الى الموصل اليوم حكوا عن ضخامة جيش المغول ، واصرار قائده صندغون على الا يقف في طريقه شيء ..**

الملك الصالح : **(بهدوء) ثم ماذا بعد ؟**

شهاب الدين احمد : واكدوا انهم راوا عددا من الامراء المسلمين يزحفون مع جندهم بمعيته ، انني اعرف احدهم جيدا ، الملك المظفر الارتقي ، امير ماردين ..

الملك الصالح : اعرف ذلك ..

شهاب الدين احمد : انا لا اقول بان علينا ان نحذو حذوهم لكي نتجنب التهلكة ، ولكن ، قد يكون هناك طريق اكثر سلامة يحفظ كرامتنا في الوقت نفسه ..

الملك الصالح : (بانفعال مكبوت) انا ادرى الناس بما فعله ابي ، اتريد ان احكي لك عن الوجه الاخر لما فعله ؛ يبدو انك لا تعرف عنه الشيء الكثير! (يلتفت إلى علم الدين فيبتسم هذا).

شهاب الدين احمد : ولكنهم قادمون ايها الملك ، وليس ثمة طريق اخر ..

الملك الصالح : اسمع .. لقد كنت بنفسي قائد الجند الذين ارسلهم ابي الى بغداد ليعبر عن مساندته لهولاكو (يبتسم بحزن) بغداد لم اجدها يا شهاب الدين .. لم ار الحاضرة التي كانت تحكم العالم لخمسة قرون .. صحيح ان عمرانها ظل شاخصا كما هو .. ولكن وجهها ، ملامحها، روحها ، كانت قد اختفت. الغزاة قتلوا الكثيرين من اهاليها. اخرون فروا او اختفوا. فئة كبيرة هجرتها الى الابد .. وطغت على السطح وجوه جديدة ليست كلها مغولية ، بل ان فيها من البغداديين انفسهم ، لكن وجوههم لم تكن تحمل اي طابع بغدادي .. وانا اجتاز الكرخ ، واعبر الجسر صوب مقر القائد المغولي كنت احس بالغربة تأخذ بخناقي ، وبصوت الضمير المطوي في الاعماق يؤنبني، ويشعرني بالخزي .. اتدري يا علم الدين .. لقد حقدت في تلك اللحظات الصعبة على ابي .. وتساءلت اكان يتحتم عليه ان يرسلني على راس جنده لكي ادفع ضريبة الذلة للطاغية فازيد من احزان بغداد ؟ هل تدري يا علم الدين .. انهم لم يكتفوا بذبح المسلمين ، بل تجاوزوا ذلك إلى ذبح فكرهم .. لقد رأيت بنفسي آلاف الكتب وهي تطفو على سطح النهر وتتحلل كلماتها في مياهه .. انهم اذكياء ويعرفون ما الذي يفعلونه .. ليسوا مجرد برابرة ، جفاة ، كما تخيلناهم ..

شهاب الدين احمد : اذا ظللنا نجتر احزاننا لم نستطع ان نفعل شيئا ايها الملك ، ان الغضب يحجب عنا الرؤية الصائبة .. والخطر قريب ، ربما يطبق علينا بعد ساعات منتظراً منا الجواب .. نحن الان بامس الحاجة للرؤية التي لا يكدرها حزن او ذكرى.

علم الدين سنجر : لكنها ، بشكل من الاشكال ، ضرورية لان ..

الملك الصالح : ماذا كنت تقول يا شهاب الدين ؟

شهاب الدين احمد : (كالمعتذر) لا شيء .. لا شيء ..

الملك الصالح : انني اعرفك جيدا .. لست انانيا ولا جبانا ، لكنه الحرص الذي علمك اياه العمل في الديوان لاكثر من عشرين عاما !

شهاب الدين احمد : ان التفريط بالدم ، اذا اردت الحق ، هو كالتفريط بالمال ، بل اشد وانكى..

الملك الصالح : لا يا شهاب الدين .. لا .. انك تنظر الى المسألة من جانب واحد .. وتبسطها باكثر مما يجب .. انك تتعامل مع التاريخ كما تتعامل مع الحساب .. واحد زائدا واحدا يساوي اثنين .. التفريط بالدم يساوي التفريط بالمال .. ان التاريخ اشد تعقيدا .. بل اذا اردت الحق ، انه اشد مكرا ، ولن يكشف عن اوراقه لمن يكتفون بقراءة غلافه .. مطالعته من الخارج..

شهاب الدين احمد : عفوك ايها الملك ، فانني لا افهم ما تقول ، ولكنني اتشبث بموقفي، وسازداد به تشبثا كلما اقترب دوي الطبول الذي يعرف المغول كيف يرفعون درجته إلى الحد الذي يفقد الانسان معه اعصابه .. ايها الملك ، انه يتحتم علينا ان نتدارك الامر قبل ان نفقد اعصابنا .. لقد سمعت كثيرا عن قرع طبولهم .. على طول الطريق الشرقي الذي اجتازوه من اعماق اسيا القت مدن شتى بقيادها ... استسلمت .. اما المدن التي حاولت ان تعصي امرهم فقد طووها ..

الملك الصالح : ها قد عدت يا شهاب الدين الى تنفيذ حساباتك وارقامك على التاريخ .. انني اسالك ، الا يمكن لمدينة ما ان تتصدى لهم .. تتحداهم وتعصيهم ، فترغمهم على سماع كلمتها ؟ هل من المحتوم ان تطوى كل المدن التي تملك القدرة على ان تقول لا حيث يجب ان تقال ؟

شهاب الدين : يا حضرة الملك ...

الملك الصالح : (مقاطعا) دعني اكمل حديثي ، واسألك ايضا. المدن التي لوت عنقها ، هل ربحت كثيرا ؟ إذا ابحنا لانفسنا ان ناخذ بمنطقك كرجل مال وادارة ؟ اجبني، هل ربحت كثيرا ؟

شهاب الدين : اذا اردت الحق ..

الملك الصالح : سأجيبك انا .. لا بما يطرحه علي عقلي وايماني ، ولكن بما شاهدته بام عيني .. لقد فعل ابي شيئا من هذا القبيل وارسلني الى هناك لكي يحقق

ربحا ما .. اتدري ما الذي قاله لي هولاكو بالحرف الواحد ؟

شهاب الدين : ولكن ذلك امر مضى ، وعلينا اليوم ...

الملك الصالح : لا لم يمض .. لقد طبع بصماته على عقلي واعصابي وتغلغل بهدوء، لكي يستقر في الاعماق ، ولن يمحوه الا الموت.

شهاب الدين : ولكنني اخشى ان يكون قرارك اليوم رد فعل لهذا الذي يعذبك.

الملك الصالح : أبداً يا شهاب الدين ، والا لما كنت قد جمعتكم. وها قد مضت ساعتان ونحن نقلب الامر على وجوهه لاتخاذ القرار المناسب ، ولكنني اؤكد لك مع ذلك ان كثيرا من المواقف في تاريخ الانسان انما اتخذت رد فعل لسلوك ما، لعذاب ، لعقدة مستعصية تفتك بالانسان .. ولم تكن معظم تلك المواقف خاطئة ، بل انها كثيرا ما حققت المستحيلات .. ففي الملمات .. في الظروف الصعبة في دائرة الصراع غير المتكافىء بين طرفين ، لا تكفي الحسابات الدقيقة وحدها لايجاد الحل .. الجمع والطرح وحدهما لا يكفيان يا شهاب الدين .. ان شيئا ما داخل الانسان هو الذي يتحدث احيانا ، يقول كلمته ، ويتخذ قراره. وقد يكون القرار مضادا للحسابات الدقيقة ، قد يكون خسرانا في منظور الجمع والطرح ، ولكنه قد يخرج بالناس من المحنة ، لا استطيع ان اجد تسمية محددة لهذا الشيء .. قد يكون الايمان .. قد يكون الارادة .. وقد يكون الكرامة التي تسكن تحت جلودنا .. الاباء الذي حقنه ديننا في اوردتنا وشراييننا ، نفخه في نسيج الروح ..

شهاب الدين : (يبتسم دون ان يقول شيئا) ..

الملك الصالح : (يلمحه) اعرف .. اعرف .. انك لا تؤمن بهذه الامور .. (يلتفت الى علم الدين) ماذا كنت اقول ؟ ها .. لقد تذكرت ، لقد قال لي هولاكو بالحرف الواحد وملامح الغضب تحكم قبضتها على وجهه (انتم بعد في شك من امرنا ، وما ظلتم نفوسكم يوما بعد يوم ، وقدمتم رجلا واخرتم اخرى لتنظروا من الظافر بصاحبه فلو انتصر الخليفة وخذلنا ، لكان مجيئكم اليه لا الينا. قل لابيك لقد عجبنا منك تعجبا ، كيف ذهب عليك الصواب وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل ، واتخذت اليقين ظنا ، وقد لاح لك الصبح فلم تستصبح !). (يتنهد) آه لو كنت اقدر يومها على ان اجد نفقا في الارض فاوى اليه .. لو كنت املك سبيلا للرد .. لكن ابي كان قد نصحني .. اكد

علي .. ان انحني للطاغية ، ان امس بجبهتي الارض إذا اقتضى الامر .. اتدري يا شهاب الدين ، ان المسلم الذي اعتادت جبهته ان تمس الارض خمس مرات في اليوم لله وحده ، لا يقدر على ممارستها تجاه احد من الناس حتى لو كان هولاكو نفسه .. انه على استعداد لان يقطع جسده امام عينيه ، قبل ان يذل جبهته المؤمنة لرجل في العالم ..

علم الدين سنجر : هون عليك ايها الملك ، ليس فعلك ذاك خطيئة على اية حال .. انه البر بالآباء !!

الملك الصالح : (بغضب) ليس برا هذا الذي دفعني اليه .. انما هو نقيض البر اذا اردت الحق .. فلما عدت الى الموصل لكي انقل اليه ماقاله هولاكو ، لمحته جيدا وهو يرتجف هلعا .. وقد تعمدت ان استفزه بالتاكيد على نبرة الاذلال التي صدرت عن الطاغية .. لكن ذلك مازاده الا ذلة وخنوعا .. غفر الله لك يا ابي ، فما كان لك وانت قد جاوزت السبعين من العمر ، ان تخشى شيئا في العالم .. ان تذل لاحد في الارض .. علام ؟ ولم ؟ وانت ذاهب بعد ايام واسابيع لمقابلة الله !

شهاب الدين : لعله الحرص على الذرية والعباد ..

الملك الصالح : (غير ملتفت لكلامه) لم يجبن بكلمة .. وهرع الى خزائنه الخاصة فاخرج جميع ما فيها من الاموال واللالىء والجواهر والثياب .. لم يكتف بهذا بل قام بمصادرة ذوي الثروة من رعاياه ، واخذ حتى حلي حظاياه ، وانتزع الحلق من اولاده الصغار .. ثم سار بنفسه ليؤكد طاعته.

علم الدين : الى بغداد ؟

الملك الصالح : لا .. كان هولاكو قد عاد الى همذان فلحقه ابي الى هناك ..

علم الدين : وكيف تلقاه الطاغية ؟

الملك الصالح : يقولون انه احسن استقباله ، واحترمه لكبر سنه ، ورق له وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة .. بل انني سمعت ما زادني احساسا بالعار رغم ان ابي اعتبره تقييما واحتراما ..

علم الدين : كيف ؟

الملك الصالح : أخذ الطاغية يداعب الشيخ .. يتسلى به ، حتى اصعده اليه على التخت ، واذن له ان يضع بيده المرتجفة حلقتين في اذنيه ، جلبهما معه من الموصل وفيهم درّتان يتيمتان (يصرخ) لقد كان يتسلى به !

علم الدين : هون عليك ايها الملك ، فان توغله في العمر قد يشفع له سلوكه هذا ..

الملك الصالح : (دون ان يلتفت مستمرا) بقي هناك يخدم هولاكو ويتملقه عدة ايام ، ثم ما لبث ان قفل عائدا ، وبصحبته مندوب عن هولاكو ليشاركه الحكم .. او ليراقبه .. لعلكما ان تسميان ذلك كما تشاءان .. انكما تذكران جيدا ملامح وجهه لحظة دخوله الموصل .. بل لعلكما نسيتما .. اما انا فلن انساها ما حييت ، لانه أبي .. صراع مرير قاس بين الفرح والغبطة وبين الذعر والغم والانبهار .. كأن الضوء والظل كانا يتقاتلان هناك على ساحة وجهه ، كل يريد ان يستاثر بها !

شهاب الدين : لقد توفي الرجل على اية حال في السنة نفسها بعد اسابيع من عودته .. رحمه الله ..

علم الدين : ولكن بعد ان زرع في المدينة هذا الضرس الخبيث ..

شهاب الدين : من ؟

علم الدين : من يكون غير المندوب الذي ارسله هولاكو ؟

الملك الصالح : (يمد شفتيه) لا .. ليس هذا الرجل شيئا .. ليس سوى عين لهولاكو على ما يجري هنا .. وما كان يجري هنا ايام ابي كان اكثر مما يريده هولاكو ، فلم يكن ثمة اهمية لمندوبه هذا .. اما الان فقد عرفت كيف اجعله مجرد رقم على الشمال .. رقم لا قيمة له على الاطلاق.

علم الدين : اعتقد ان الاوان قد آن لاستئصاله ..

شهاب الدين : لست معك في هذا .. انه ورقة جيدة قد تنفعنا فيما نحن مقبلون عليه ..

الملك الصالح : على اية حال ، فانني ساخضعه للرقابة الشديدة ، ولسوف اتابع ردود افعاله .. قد يخدمنا الرجل فعلا .. (يرفع اكمام ردائه ويسترخي في جلسته قليلا) دعونا من هذا كله ، وقولوا لي ماذا ترون ..

علم الدين : ما تراه يا حضرة الملك .. انني اعرف جندي جيدا .. بل اعرف اهل المدينة .. لقد خبرتهم بنفسي وقرأت عنهم ، إنهم لا ينقادون بسهولة .. كلمة الرفض معلقة على شفاههم ، وهم انما يستمدون هذا كله من قدرتهم على المجابهة ، ان نفسهم في المقاومة طويل ايها الملك ..

الملك الصالح : وانت يا شهاب الدين ؟

شهاب الدين : لا زلت عند رأيي ، فلا طاقة لنا بالغزاة ، والاولى ان نتجنب الاصطدام بهم، لان ذلك ليس في مصلحتنا على الاطلاق.

الملك الصالح : نهادنهم يعني ؟!

شهاب الدين : لا اقول ذلك .. وانما نحتال عليهم .. نسعى لان نكسب الوقت فلعل الله يحدث بعد ذلك امرا !

الملك الصالح : لا تقل هذا يا شهاب الدين .. فليس بمقدور احد ان يحتال على رجل كصندغون .. بالعكس انهم هم اصحاب الحيل .. دعك من هذا ولا تحاول ان تسمي الاشياء بغير مسمياتها الحقيقية .. ليس احتيالا هذا الذي تريده، ولكنه التذلل والانحناء ..

شهاب الدين : اسمح لي ايها الملك بان اقدم تحفظي ثانية ، وليكن صدرك واسعا كما عودتنا دائما ..

الملك الصالح : قل يا شهاب الدين .. قل (يضحك) فلست من هواة فصل الرؤوس عن الاجساد باشارة ماكرة او ضربة اصبع .. ان خصومنا هم الذين يمارسون ذلك، ولن نكون مثلهم ..

شهاب الدين : أخشى ، مرة اخرى ، ان يكون دافعك في اختيار القرار ، الألم الذي سببه تصرف ابيك رحمه الله !

الملك الصالح : اطمئن يا شهاب الدين .. اطمئن .. فلن اقفز في الفضاء بحجة انني غاضب، ولن ادير ظهري للخطر القريب مجترا آلامي واحزاني .. ساحسب لكل خطوة حسابها ، فانا مسؤول عن رعيتي ولن افرط بها استجابة لحزن او غضب ..

شهاب الدين : أطال الله عمرك أيها الملك .. ان كبار رجال الديوان يعرفونك جيدا ، رجل يعرف كيف يزن الامور في ساعات الحلكة حيث لا يكاد احد يتبين بصيصا من ضوء ..

الملك الصالح : (مبتسما) ارجو الا يدفعك اصراري الى التنازل عن موقفك .. (يربت على كتفه) قد يكون التراجع عن موقف ما ازاء اصرار على موقف مضاد ، فضيلة تحسب لصاحبها .. لكنني اخشى من شيء اخر يا شهاب الدين !

شهاب الدين : قل له ايها الملك وستجدني صريحا معك ..

الملك الصالح : النفاق الذي تعرف جيدا كم احتقره ..

شهاب الدين : حاشا لله .. انك في الوقت نفسه تعرفني جيدا ..

الملك الصالح : (يربت على كتفه مرة اخرى) هذا ظني فيك (يلتفت الى علم الدين) اعتقد ان الامر اصبح واضحا تماما .. لقد اخترت المقاومة ، وهذا قراري الاخير

(ينهض) (ستار)

المشهد الثاني

"ظهر اليوم نفسه ..

الملك الصالح ممتطيا فرسه عند باب سنجار ، غربي الموصل يحيط به علم الدين سنجر وشهاب الدين أحمد وعدد من الامراء والجند ..)

الصالح : (لعلم الدين) لا داعي لان اوصيك !

علم الدين : اطمئن ايها الملك ، فساكون عند حسن ظنك باذن الله ..

الصالح : (لشهاب الدين) ارجو ان يكون قد تأكد لديك الان ، انني اجمع واطرح مثلك تماما (يضحك) وان قراري بني على حسابات ارجو ان تكون صائبة ..

علم الدين : بكل تاكيد

الصالح : لا ليس هكذا .. انما علينا ان نعد العدة ونترك الباقي على الله !

شهاب الدين : وهل تضمن وقوف مصر الى جانبنا ايها الملك ؟

الصالح : هذه مسالة اشعر انني مطمئن اليها اشد الاطمئنان .. ولكن ما يقلقني هو الزمن ..

علم الدين : الزمن ؟

الصالح : نعم .. انه حينا يقف معك ، وحينا مع خصمك .. انه سيف ذو حدين .. بالنسبة لنا فان المسألة لممّا يبعث على القلق ..

شهاب الدين : (مبتسما) ارجو ان تكون هذه المسالة قد حسبت هي الاخرى !

الصالح : تركت الايوان ضحى اليوم وانا افكر في الامر .. لكنني سابذل جهدي .. سانطلق والرجال الذين اخترتهم باقصى ما نستطيع من سرعة ، من اجل كسب الوقت والوصول الى مصر .. سنمضي على خيولنا ليل نهار ، وسنختار الطرق التي تقربنا من الهدف ، رغم ما قد تتضمنه من مصاعب واخطار .. اتدري يا علم الدين .. ان الحرب ، بشكل من الاشكال ، صراع مع الزمن والمكان .. وها انا ذا احمل على كتفي عبء هذا الصراع المرير ، مخلفا ورائي مدينتي الحبيبة ، مطمئنا الى انها ستفي بالعهد .. وستصبر على حصار المغول .. وستنتظرني .. انني متأكد من ذلك .. لانني اعرفها جيدا .. ما من شيء تحبّه يا علم الدين الى حد العشق ، الا كان لك ان تطمئن الى انه بدوره يحبك ويعشقك !!

علم الدين : كن مطمئنا ، فانني اعرفهم جيدا ، وسترجع باذن الله لكي تراهم ينتظرونك ..

الصالح : (مربتاً على كتف شهاب الدين) والطبول المغولية ؟

شهاب الدين : (كمن ينتبه من تفكير مستغرق) اية طبول ايها الملك ؟

الصالح : ركز سمعك جيدا ، وسوف تحس بضرباتها المخيفة !!

علم الدين : ليس ثمة رعب لا يمكن التغلب عليه !

الصالح : كيف ؟ هل ستصم اذنيك ؟

شهاب الدين : وهل بمقدور مدينة بكاملها ان تصم اذانها ؟

الصالح : كلا !

علم الدين : اذن فهنالك اسلوب اخر .. انه الاصرار على المقاومة .. الايمان الكامل بان رعبا كهذا يجب ان يهزم .. او على الاقل يقاوم .. وحينذاك ، سوف يفقد الايقاع الرهيب تاثيره .. سيغدو مجرد اثارة وارباكا .. لعبة مكشوفة ..

الصالح : بارك الله فيك ..

علم الدين : وثمة ما هو اكثر فاعلية من هذا ..

الصالح : (مبتسما) اهنالك شيء اخر بعد ؟

علم الدين : بكل تاكيد .. انه الامل .. انهم سينتظرونك ، ومن ورائك ما ستمدك به مصر والمماليك ..

الصالح : (وهو يخطف نظرة الى شهاب الدين) اتدري .. انني احس اللحظة انني سعيد .. اذا كان اصحابي ينظرون الى المسالة هكذا فمعنى ذلك ان يدا واحدة .. يدا قديرة .. يداً تملك العقل والقلب والقوة .. سترتفع من الموصل .. اليوم او غدا .. لكي تطوف على اسوارها ، واثقة مطمئنة ، تحميها وتدفع عنها .. ثم تقف بمواجهة المغول .. وتصفعهم !

شهاب الدين : (وهو ينظر الى الافق) لعلهم الان على بعد فراسخ !

الصالح : (مستمرا) ولم لا ؟ قبل اقل من سنتين كادوا ان يكتسحوا مصر نفسها ، ولكنها، في اللحظة الاخيرة ، اختارت ان تجابه الغزاة بيد واحدة ، فتلوي ذراعهم الصلبة ، القاسية ، الباردة كالحديد ، وتمرغ انوفهم في التراب .. لقد صفع المغول في عين جالوت ، وليس مستحيلا ان يتلقوا صفعة اخرى في الموصل!! ليس مستحيلا ..

شهاب الدين : (بعفوية) الموصل ؟

الصالح : (بدهشة) ولم لا ؟

شهاب الدين : لا .. لا اقصد .. ولكن

الصالح : (مقاطعا) ليست احجام الاشياء هي التي تصنع التاريخ دائما ... ولكنه الايمان

الواثق بنفسه .. الاصرار المؤمن اذا شئت ..

شهاب الدين : رغم كل ما قلته ايها الملك .. رغم انني احس جازما بان جزء ما مني هو معك .. يؤيدك ويباركك ، فانه سيظل في النفس شيء .. هل تسمح ان اكون معك صريحا مرة اخرى ؟

علم الدين : (بقلق) ماذا عندك هذه المرة ؟

الصالح : انني احب صراحتك يا شهاب الدين لانني اعرف مدى حرصك .. ولكن الحرص اذا تجاوز حدوده المعقولة .. اذا اعتمد منطق الجمع والطرح بحساب الكسور والاعشار اصبح سلاحا نوجهه ضد انفسنا .. وانا ارفض في لحظات كهذه ان نمارس هذه اللعبة ..

شهاب الدين : ولكنها تحيك في نفسي ..

الصالح : قلها فلا بأس عليك ..

شهاب الدين : انه ما من مدينة من مدن الاسلام ، على مدى بلاد المشرق كلها ، قدرت على ان تقف بمواجهة المغول .. لقد طووها جميعا .. فما معنى ان تشذ الموصل وتصنع معجزة كالسراب هي ليست في متناولنا على اية حال ؟

الصالح : (وهو ينظر عبر الافق) قد لا تصدقني اذا قلت لك بان القاعدة كانت في كثير من الاحيان صنيعة الاستثناء .. ان تكسر المقولات الراهنة .. ان تتجاوز المعادلات العادية صوب معادلات من نوع جديد .. وتصر على ذلك .. تؤمن به حتى النخاع .. فان ذلك سيمنحك الفرصة لان تفرض معادلاتك الجديدة هذه على التاريخ ..

شهاب الدين : اتمنى ان اصدقك ايها الملك ..

الصالح : سواء صدقتني ام لا فان الامر سواء .. ان المسالة تتجاوز حدود القناعة العقلية صوب يقين هو اعمق بكثير ، وابعد بكثير .. وما دمت لا تملك هذا اليقين ، فان الامر سيان ..

شهاب الدين : (متراجعا) معذرة ايها الملك ..

الصالح : مم ؟ انني لم اكره الصراحة يوما ..

شهاب الدين : لقد اخذت من وقتك اكثر مما يجب ، وانت مزمع الرحيل.

الصالح : (مبتسما) اذا قدر لي ان ارجع .. فسوف نواصل الحديث !

شهاب الدين : ولكنني اخشى ..

الصالح : (يضع يده على فمه) ليس الان .. ليس الان ..

" يشد لجام فرسه ملوحا بالوداع ، وما يلبث رجاله ان ينطلقوا وراءه ".

(تعتيم)

الظاهر بيبرس : (متربعا على عرشه في مقر سلطنته بالقاهرة) ها قد جئت اذن ايها الملك الصالح؟

الصالح : (وهو يرمي نفسه باعياء الى جوار الظاهر) نعم ايها السلطان.

الظاهر : (مبتسما) حللت اهلا ووطئت سهلا ..

الصالح : أما ان احلل أهلا ، فنعم بالله .. وإما ان اطأ سهلا فلا والله ، لن يقر لي قرار حتى اخذ وعدا منك بالمعونة .. انهم يغزوننا ايها السلطان .. فان لم اتصد لهم ، انا وغيري من الملوك والامراء .. فلا يبعد ان يطرقوا ابواب القاهرة مرة اخرى!

الظاهر : (مستغرقا في التفكير) ولكن قل لي ، كيف قدرت على اجتياز المسافات الشاسعة بيننا وبينكم في ايام معدودات ؟! ان هذا والله لممّا يدعو إلى الدهشة ..

الصالح : لقد قطعها خالد (رضي الله عنه) قبل مئات السنين ، وسيقطعها بعدي آخرون .. ان تاريخ الاسلام لن يعدم الذين يتجاوزون حيثيات الزمن والمكان بحثا عن مصائر دينهم .. ان ديننا يمتحن اليوم برجاله ايها السلطان .. فان لم نصمد ..ان لم نستجب للتحدي ، فماذا سيقول عنا التاريخ ؟ ماذا سيفعل بنا ؟

الظاهر : ولكنك لم تقل لي كيف قطعت الطريق الطويل .. انني اهنئك على اية حال ..

الصالح : عندما تقرر ان تصل شاطىء بحر الظلمات من مكانك هذا ، في يوم واحد ، فانك فاعل ..

الظاهر : (يمسد على لحيته دون ان يجيب) ..

الصالح : (مستمرا) فيما وراء عقلنا الظاهر واحساسنا المنظور ، عقل آخر واحساس ثان يدلاننا على الطريق .. يعلماننا كيف نختزله وصولا الى الاهداف ..

الظاهر : كيف ؟

الصالح : ومع ذلك فهو اوضح من العقل ، واشد ظهورا من الحس المشهود .. انه الايمان ايها السلطان ..

الظاهر : (محاولا ان يداري انفعاله) لا اريد ان اتحدث عن نفسي فان هذا يغضب الله ورسوله .. ولكن هناك امورا يجب ان تقال .. لقد عرفت هذا الذي تحكي عنه قبل سنتين !

الصالح : رسالة هولاكو .. اليس كذلك ؟

الظاهر : وبعدها ، كان الايمان هو العقل واليد والسمع والبصر .. اقسم لك ايها الملك الصالح ، انه بدونه ما كان بمقدورنا ان نفعل شيئا .. كنا سنبتلع الهزيمة ونحن

لا نـزال نجمـع ونطـرح ، ولكننـا مـا لبثنـا ان وجـدنا انفسـنا محمـولين الـى سـيناء وفلسطين ، هناك حيث تحققت المعجزة وهزم المغول .. كـان ثمـة مـا يمنحنـا القدرة على الفعل من وراء المنظور والملموس ..

الصالح : (مع نفسه) قلها له .. فانه لا يؤمن بها !

الظاهر : ماذا ؟

الصالح : أبداً .. لا شيء ..

الظاهر : والان ، فانك تتعرض للمحنة وتطلب المساعدة ..

الصالح : نفعل ما في وسعنا ونترك الباقي على الله ..

الظاهر : سـأفكر فـي الامـر ، ولـن يطـول جـوابي .. ان لـك ان ترتـاح ورجالـك يومـا او يومين ..

الصالح : (بنبرة الامل) ارجو ان يجيء الجواب في حدود هذا اليوم او اليومين !

الظاهر : ان شاء الله (يهم بالنهوض ولكنه ما يلبث ان يجلس ثانية) ولكنك لم تقل لي هل وصلوا ام لا ؟

الصالح : (يجلس هو الاخر) كانوا على بعد خطوات .. والان فانهم يحاصرون المدينـة بكل تأكيد ..

الظاهر : وهل معنى هذا انك ستنتظر حتى نعد العدة لكي نقدر على مجابهتهم ؟

الصالح : (بثقـة) كـلا .. لـن اتـرك مـدينتي تـدافع وحـدها بانتظـار المعونـة التـي قـد يسـتغرق وصـولها اسـابيع وربمـا اشـهرا .. سـأرجع لكـي ادبـر الامـر هنـاك .. وعنـدما تصـل، ساعرف كيف اجابه الغزاة

الظاهر : (وهو يحدق فيه) ولكن ..

الصالح : اعرف ما الذي يدور في خلدك .. كيف سأتمكن من الدخول .. اليس كذلك ؟

الظاهر : هذا هو السؤال ..

الصالح : من هذه الناحية اطمئن .. فانني قد تدبرت الامر مع رجالي ..

الظاهر : (وهو يهم بالنهوض) يعني انك ستنتظر هناك ؟

الصالح : (ينهض هو الاخر مبتسما) باذن الله .. ولكن لا تنس ايها السلطان ان اليد الواحدة لا تستطيع التصفيق .. انني بانتظار اليد الاخرى لكي اعرف كيف اكسر رقابهم !

(ستار)

المشهد الثالث

(عصر اليوم نفسه .. دار المملكة في الموصل علم الدين سنجر يتصدر المجلس ومن حوله كبار الامراء والقادة ..).

علم الدين : لقد تراجع الى القلعة اذن لكي يعتصم هناك ؟

احد القادة : حاول ان يقطع الطريق عليك ، ويمنعك من دخول المدينة ، لكي تظل بلا قائد، وحينذاك يسهل عليه تسليمها لرفاقه القادمين لقمة سائغة ..

علم الدين : (يتحسر) سامحك الله ايها الملك بدر الدين .. لقد زرعته بين ظهرانينا ، وكان بمقدورك ان ترفض .. لقد كان ابنك الملك الصالح على حق .. ان هذا المندوب المغولي شوكة مغروزة في جنوبنا .. سكين تتهددنا من الخلف ونحن نجابه الغزاة ..

القائد : اتفقت كلمتنا على قتله ، رغم ان ذلك سيستفز المغول ، ونحن لا نريد ان نستفزهم قبل ان يرجع الملك الصالح .. طاردناه ولكنه تخفى حتى اوى الى القلعة ، واعتصم هناك .. انه ليس وحده على اية حال !

علم الدين : (دهشا) ليس وحده ؟

القائد : لقد تآمر معه عدد من نصارى المدينة ..

علم الدين : هكذا اذن ؟

القائد : حرضوه على منعك من دخول الموصل بعد توديعك للملك ، ولما فشلت المحاولة حموا ظهره ، وهربوه عبر دورهم وكنائسهم حتى انتهى به المطاف الى القلعة الحصينة ، ولا يزال بعضهم معتصما معه هناك ..

علم الدين : (بغضب) لقد فعلوها اذن ؟ كنت اخشى ذلك .. لقد كان الملك الصالح اول من نبهني اليه .. قال لي انهم سيتعاطفون معهم .. سألته وهل ثمة ما يدفعهم إلى ذلك وقد عاشوا معنا في هذه المدينة مئات السنين ؟ قال انهم يعرفون جيدا ان هولاكو يعطف عليهم بتحريض من زوجته النصرانية ثم ها هو ذا يقذف الموصل بقائده النصراني صندغون .. انه يعرف كيف يمزق الصفوف .. خبيث يجيد استعمال كل سلاح يبلغ به مأربه .. وها هو ذا يلعب لعبته لكي يعثر في المدينة على من يعبد له الطريق .. وستنطلي اللعبة عليهم بكل تاكيد ..

قائد ثان : اننا حذرون ايها القائد ، وقد فرضنا على القلعة رقابه محكمة ..

علم الدين : لا اعني هذا على وجه التحديد .. انما هناك مئات منهم منتشرون في

الموصل، واخشى ان يمدوا الجسور للمغول .. اخشى ان يفتحوا ثغرة هنا وممرا هناك فيصعب علينا رتق الفتق ومجابهة السيل .. انكم تعلمون جيدا انه من المستحيل احيانا ان يقاتل المرء على جبهتين ..

القائد الثاني : وهذه ايضا قد حسبنا حسابها .. انهم مراقبون جيدا ..

علم الدين : ولكن حذار من استفزازهم .. ان مهمتنا تحتم علينا ان تنصب جهودنا على تجميد الوضع قدر الامكان .. تعليقه بصيغته الراهنة ريثما يعود الملك لكي نعرف ما الذي فعله بصدد النجدة .. وحينذاك يمكن ان نخطو خطوة اخرى ..

القائد الاول : على اية حال ، لقد اقتصصنا من بعض رؤوسهم بعد ان تاكد لدينا اشتراكهم في المؤامرة .. كان لابد من العقاب لكي لا يتمادوا ونحن في حال لا نحسد عليها .. ثم اننا خفنا ان يسبقنا الاهالي الى الانتقام فنفقد السيطرة .. لقد كانوا يتميزون غيظا وغضبا.

علم الدين : (وهو يدعك لحيته بعصبية) العين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص ..

القائد الاول : ليسوا كلهم اذا اردنا الحق .. ان بعضهم معنا قلبا ويدا ..

علم الدين : الحمد لله !

القائد الاول : ذلك مما يخفف بعض العناء ..

علم الدين : بكل تأكيد ..

القائد الثاني : لقد جاء بعضهم الى دار المملكة قبل ساعتين لكي يعلنوا عن تضامنهم .. كانوا يحسون بالعار مما فعله اصحابهم .. وكنا نرى ذلك بوضوح في نظراتهم..

علم الدين : لو ان محاولته نفذت بعد وصول المغول لساءت العاقبة ولكن الله سلم .. ومن يدري فلعل الامور تجري لصالحنا .. وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم..

القائد الاول : رغم اعتصامه وانصاره بالقلعة فانه معزول هناك ، وقد يتسلل منها عائدا الى اصحابه لحظة يتبين له ان الموصل ليست لقمة سائغة في فم المغول كما يتوهم .. انني متاكد من ذلك .. وعلى اية حال فان هذه المؤامرة الملعونة قد فرزت خصومنا .. ونرجو ان نجابه الغزاة القادمين صفا واحدا ..

علم الدين : (محاولا ان ينتزع ابتسامة) ان شاء الله !

(تعتيم)

(مساء اليوم نفسه ..

تبدو قلعة الموصل الرئيسية (باشطابيا) القائمة على مرتفع من الارض والمطلة على نهر دجلة في الركن الشمالي الشرقي للمدينة على بعد مئات الامتار من دار المملكة ..

المندوب المغولي يقف وراء احد الابراج يطل على النهر ومن حوله عدد من الرجال ..)

المندوب : (مشيرا الى تحصينات القلعة المرتفعة بقلق) اننا بمأمن منهم اليس كذلك ؟

عبد الاحد البناء : إنها مهنتي ايها القائد ، وانا اعرف هذه التحصينات جيدا .. لقد قطعت عمري في ترميمها وصيانتها ..

المندوب : (بنفاد صبر) يعني ؟

عبد الاحد : يعني ان مقاتلي الموصل وضعفهم معهم ليسوا بقادرين على اقتحامها باقل من شهرين !

جورجيوس بن حنا: (وهو يفرك يديه بارتياح) وخلال ذلك .. بل قبله بكثير .. يكون اصحابكم قد اكتسحوا المدينة .. ليس ثمة مدعاة للقلق على الاطلاق ..

المندوب : اعرف ذلك جيدا ، فالقائد صندغون سيصل هذا المساء وسيبدأ الحصار .. ما من مدينة وقفت في وجهه .. انه يد هولاكو الضاربة التي عرف كيف يمحو بها المدن والقلاع من على وجه الارض كما يمحو المرء بيوتا مشيدة من الرمال ..

عبد الاحد : ثم ان الملك غائب عن المدينة ، وقد لا يرجع اليها ابدا ..

المندوب : افترض انه لا يزال موجودا فيها ، فهل يقدم ذلك او يؤخر شيئا ؟

جورجيوس : انه صراع غير متكافىء على الاطلاق .. وكان عليهم ان يدركوا هذا جيدا .. أشد ما ارثي لهم .. انهم كمن يلقي بنفسه طائعا الى النار ..

عبد الاحد : ثم ان تهورهم بقتل عدد من اصحابنا سيضاعف من نقمة صندغون .. وسيكون العقاب رهيبا ..

جورجيوس : (وهو يفرك يديه) اتراها ستسمع بذلك !

المندوب : من ؟

جورجيوس : زوجة هولاكو !

المندوب : (ضاحكا) لقد ذهبت بعيدا يا رجل

جورجيوس : أبداً ، فان حزنها سيجعلها تطلب من هولاكو ان يضاعف العقاب .. هذه ليست اول مرة .. انه يحبها كثيرا ..

المندوب : (كمن يتذكر) ثمة احتمال واحد يسبب لي القلق ..

عبد الاحد (معا) ماذا ؟!

وجورجيوس :

المندوب : (وهو يلتفت اليهما مائلا بظهره على جدار البرج ومشيرا الى جهة الغرب) اذا رجع الملك الصالح بنجدة كبيرة فقد يختل ميزان القوى فتفوت الفرصة على المغول .. ان المماليك ممن يخشى باسهم ، وقد خاب فالنا معهم في عين جالوت .. واخشى ان يفعلوها مرة اخرى ..

جورجيوس : (بقلق) وهل انت متأكد من ان الملك قد ذهب يطلب نجدتهم ؟

المندوب : هذا واضح ..

عبد الاحد : ولكنه يحتاج لاكثر من شهر كي يصل الى هناك .. اما صندغون فها هي راياته تخفق قادمة من الجنوب .. ساعات قلائل ليس الا ..

جورجيوس : ترى كم ستقدر مدينة ضعيفة كالموصل على المقاومة ؟ يوما ؟ يومين ؟ فلتكن عشرة ايام .. وصاحبنا لم يكن قد اجتاز الفرات بعد (يضحك) ..

المندوب : (وقد عاد اليه شيء من اطمئنانه) انا معكما في هذا .. ان ما تقولانه مؤكد .. ولكن الانسان لا يدري احيانا لم يخاف المجهول .. رغم ان كل ما يراه ويلمسه يمنحه الاطمئنان ..

عبد الاحد : يحدث احيانا ايها المندوب وان يقع ما لا تتوقعه فيقلب حساباتك رأساً على عقب .. ولكن هذا في حالتنا مستحيل .. مستحيل ..

جورجيوس : لو ان مدينة او قلعة واحدة استعصت عليهم لقلنا .. ربما .. ثم ان صندغون ليس بالرجل الهين .. انه منحوت من الغرانيت نفسه الذي قد منه سيده هولاكو ..

عبد الاحد : كنت اقول في نفسي لو ان محاولتنا بمنع علم الدين سنجر من دخول المدينة ظهر هذا اليوم آلت الى النجاح ، لكان الحال غير الحال .. ومن يدري فلربما جاء صندغون هذا المساء لكي يتسلم مفاتيحها .. ولكن (يتنهد) ..

جورجيوس : لا داعي للندم .. لقد فعلنا الذي نقدر عليه .. وسيعرف صندغون اننا لم ندخر وسعا في تسهيل مهمته ..

المندوب : (بلهجة التأنيب) لقد اوهمتماني بان معكما حشدا كبيرا من الاعوان وان المحاولة مضمونة تماما .. ثم سرعان ما تبين لي اننا كنا مراقبين جيدا، وانكما في قلّة من الرجال .. ولو انني اطعتكما حتى النهاية لكانت رؤوسنا قد احتزت منذ ساعات !

عبد الاحد : ولكننا عرفنا كيف نؤمن لك الحماية لكي تصل الى هنا ..

جورجيوس : لحسن الحظ فان ازقتنا ودورنا وكنائسنا تتمركز في الساحة الشمالية الفاصلة بين باب سنجار والقلعة .. لقد كان طريق الانسحاب معبدا ..

المندوب : لا انكر ذلك ، ولكن ثمة خطأ في التقدير كان يمكن الا يحدث ..

عبد الاحد (معا) في هذه النقطة نحن معك ..

وجورجيوس :

المندوب : (وهو يلتفت صوب النهر مشيرا اليه) لولا هذا لكان بمقدور صندغون اكتساح المدينة في ساعات معدودات ..

عبد الاحد : (مبتسما) لكنه يؤمن لنا الحماية نحن الاخرين .. فلا باس ..

جورجيوس : مهما يكن من امر ، فان العبرة في النتائج ..

المندوب : (دون ان يلتفت اليهما ، مصيخا سمعه جنوبا) اتسمعان ؟

عبد الاحد ماذا ؟

جورجيوس :

المندوب : (وهو يمد عنقه اكثر) انصتا جيدا .. الطبول المغولية !

عبد الاحد (بفرح) لقد وصلوا اذن .. هذا ما كنا نتوقعه !

وجورجيوس :

المندوب : وسيعرف علم الدين سنجر غدا صباحا بأس المغول

عبد الاحد : ولسوف يدفع الثمن غاليا عند الصبح ..

جورجيوس : أليس الصبح بقريب ؟!

(ستار)

المشهد الرابع

(الرابع من جمادي الاخرة

خيمة ميدان كبيرة في الباحة المجاورة لجامع نور الدين محمود ، وسط الموصل ، حيث مقر الملك الصالح وقادته لقيادة مهمات الدفاع عن المدينة.

يقف الصالح عند باب الخيمة والى جواره علم الدين سنجر وحشد من القادة والامراء .. في المدى القريب تبدو حركة غير اعتيادية ، فثمة مقاتلون يروحون ويجيئون وهم ينقلون المؤن والذخيرة وثمة حشود من الاهالي المتطوعين يحملون اسلحتهم ويتجولون قريبا من الاسوار لمراقبة تحركات المغول .. نداءات واصوات مختلطة تقطعها بين الحين والاخر ضربات المنجنيقات المغولية).

الصالح : (مشيرا صوب الغرب والجنوب) اذن فقد اصبح عددها كبيرا ؟

علم الدين : بكل تأكيد ، لقد احصينا منها حتى الان ما يزيد على العشرين.

الصالح : قاتلهم الله .. انهم يعرفون كيف يضربون بها ، وكيف يصيبون الاهداف ؟

علم الدين : انهم معروفون بمنجنيقاتهم ايها الملك ، فهي اداتهم الاساسية في اكتساح التحصينات والقلاع ، ولكنها لن تنال من عزيمتنا باذن الله ..

الصالح : (يربت على كتفه) بارك الله فيك يا علم الدين كنت اقول دائما وانا ذاهب الى مصر انني قد تركت في الموصل رجلا لا يهمني بعدها ان عدت او لم اعد على الاطلاق !

علم الدين : (وهو يشير الى القادة المحيطين بهما) ليس علم الدين وحده على اية حال ..انه بدوره يستمد قدراته على المقاومة من هؤلاء القادة المؤمنين .. لقد خبرتهم جيدا ايام المحنة مع المندوب المغولي وانصاره ، وها اناذا اختبرهم مرة اخرى .. اربعة اشهر بكاملها !

الصالح : (يجيل عينيه في وجوههم مبتسما) اعرف يا علم الدين .. اعرف ..

علم الدين : (مستمرا) إذا اردت الحق فان ثمة ما يرفع من معنوياتنا ويمكننا من الصمود .. انها جماهير المدينة .. لقد تدفقت على مقر القيادة منذ لحظات الغزو .. وكنت ارى اصرارهم واندفاعهم جيدا فاقول في نفسي ها قد ربحنا نصف الجولة .. ولم يتبق سوى ان يرجع الملك بالبشرى.

الصالح : قبل ان اتخذ قراري بالمقاومة ، وعبر لحظات التردد التي يتارجح فيها المصير بين السلب والايجاب .. يخفق كالوهج لحظات ثم يغيب في الظلمة القاتمة لحظات اخرى .. يومها عرضت على مخيلتي ، هذه الجماهير

المؤمنة، فمالت بي الكفة ، وطال امد الوهج ، فاتخذت على ضوئه قراري .. انني اعرفهم لانني خبرتهم جيدا منذ عودة ابي كسيرا من بغداد .. لقد كان حزنهم هو الذي يتكلم .. يقول بلغته الخاصة كل شيء .. يحكي عن كل شيء .. كانوا هم الذين انكسروا وليس ابي .. لقد ارادها رحمه الله مساومة .. بيعا وشراء .. اما الجماهير المؤمنة فلن تساوم .. لن تبيع وتشتري .. يقينا .. وقلت في نفسي ان علي اكثر من مهمة .. ان اكفر عن خطيئة ابي .. ان ادافع عن مدينتي .. وان اجابه حزن الجماهير بما اقدر عليه من الفرح الذي يجعل الانسان ، حتى وهو يموت او ينهزم ، يموت وينهزم وهو قرير العين ، مرتاحا .. وشتان بين الهزيمتين !

علم الدين : كان شهاب الدين احمد يأكله القلق منذ لحظات وداعك عند باب سنجار .. ولكنه ما لبث ان راى بام عينيه هذا التوحد العجيب بين الجماهير والقيادة .. هذا التعاشق الذي يحيل المدينة فعلا الى قلعة صلبة قديرة على الصمود .. على الاقل ريثما ترجع من هناك .. حينذاك استرد بعض روعه ، وها هو الان يعمل بهدوء في حساباته بالديوان ، رغم متاعب عمل كهذا في ظروف الحرب والنفقات الكبيرة.

الصالح : (كمن يتذكر) وكيف حال الاموال ؟

علم الدين : لا اخفي عليك ايها الملك .. انها ليست على ما يرام ، رغم ما تعرفه عن حرص شهاب الدين وقدرته على مجابهة المعضلات .. ولكن المسالة هذه المرة تختلف .. انها تفوق الطاقة على الحرص .. اربعة اشهر من الحصار الشرس ليست بالامر الهين ..

الصالح : (وهو يهز راسه) اعرف هذا ..

علم الدين : ولا اكتمك كذلك ان الاقوات تعاني من نقص متزايد قد يبلغ حافة الخطر في يوم قريب .. اما اسعار المواد فلا تسل عنها .. لقد بلغ بعضها حدا لم يحلم به انسان !

الصالح : (بقلق) سأطلب من شهاب الدين ان يرفع الي هذا المساء تقريرا عن هذه المسائل ، ولكنني احب ان اعرف الان شيئا عن القدرات الدفاعية .. هل اخذت تعاني من الانكماش والتناقص هي الاخرى ؟

علم الدين : (بثقة) في هذه المسالة قد لا تجدي التقارير نفعا ، قد لا تعبر عما هو قائم فعلا .. وما هو قائم هو هذا الذي تراه بعينيك ايها الملك فتقران له بحمد الله!

الصالح : (وقد عاد اليه شيء من اطمئنانه) الحمد لله ..

علم الدين : إن مدينة تقاوم الاشهر الطوال قوى تفوق طاقتها بكثير ، ثم تصمد للمحنة ، دون ان ينقص ذلك من عزمها شيئا ، لهي قادرة على ان تواصل المقاومة اشهرا اخرى ..

الصالح : انه الايمان الذي يغذيه الامل يا علم الدين .. انهم ينتظرون وصول النجدة بين لحظة واخرى ، وهذا يدفعهم لتصعيد مقاومتهم .. وهم يقولون في نفوسهم سوف ياتون .. فما علينا الا ان نمسك بمصيرنا بقوة .. فعلى بعد خطوات .. على مدى لحظات خاطفة من عمر الزمن ، قد تنقلب الكفة فنخسر كل شيء ، او نكسب كل شيء .. وهكذا ، فان الامر ها هنا يختلف تماما عن المال والمؤونة والقوت .. هناك تنخفض المعدلات ، تتحرك باتجاه مضاد .. اما هنا .. على اية حال فان شمس الدين البرلي قادم عما قريب ، وقد بدا تحركه يحدث قلقا في معسكر صندغون .. والقلق في حالات كهذه مدخل الى الرعب .. الى شيء قريب من الرعب .. سمه انهيار المعنويات .. سمه غياب الامل .. سمه ما شئت .. لكن التقارير التي تصلني عما يجري هناك ، اسفل الاسوار، في معسكرات العدو ، تمنحني بالمقابل يقينا متزايدا بان مقاومتنا قد اتت ثمارها وانه ليس ثمة لا جدوى من اتخاذ القرار الرافض في لحظات انهيار التكافؤ بين قوتين .. لان انهيارا كهذا ليس سوى حالة راهنة .. حالة قد تتبدل بعد لحظات او ساعات او حتى ايام وشهور .. لا بد ان تتبدل ، فالتاريخ لا يعرف السكون .. انه تمخض دائم يقلب ويغير على غير توقع احيانا .. والمهم ان الانسان بموقفه يمكن ان يضيف ايمانه وارادته الى حركة التاريخ ، وحينذاك .. فليس ثمة حالة ابدية من عدم التكافؤ .. من السكون المطلق لصالح الخصوم والاعداء .. كنت اخمن هذا جيدا وانا اتخذ قراري .. علم الدين !

علم الدين : نعم ايها الملك ..

الصالح : اعلن في المدينة ، وباعلى ما تستطيع من صوت ، ان نجدة البرلي قد قطعت ثلثي الطريق ، وانها ستصل عما قريب .. امنح الجماهير فرصة لالتقاط الانفاس .. لأمل اكثر كثافة يعينهم على تصعيد روحهم المعنوية ، ويتجاوز بهم حافات الاعياء .. ولا تنسَ ان ترسل العيون الى معسكر صندغون لكي ينشروا فيه الخبر على اوسع نطاق .. لقد ان الاوان يا علم الدين !!

(تعتيم)

صندغون : (عند باب خيمة الميدان الكبيرة في الجهة الجنوبية من سور الموصل قريبا من باب العراق ، يحيط به حشد من قادته وامرائه) .. نعم .. لقد آن الأوان للرحيل ..

تكودار : ولكن أيها القائد

صندغون : (مقاطعا) اعرف ما ستقول ، ولكنني ادرك الامور اكثر منك !

تكودار : امنحني اياما اخرى وسترى بام عينيك !

صندغون : ستدك الاسوار وتفتح الطريق .. اليس كذلك ؟

تكودار : بكل تأكيد ، ولسوف ترى ..

صندغون : (بعصبية) اذن لماذا لم ترني ذلك عبر اربعة اشهر مضت وانت تضرب المدينة ليل نهار ؟!

تكودار : رغم انني لم اجد في حياتي اصرارا كهذا الذي تبديه الموصل .. تصلح في الليل ما ندكه في النهار ، وتبني نهارا ما نأتي عليه في الليل .. فانني واثق من استسلامهم في نهاية الامر .. (بثقة) ان منجنيقاتي لم يقف لها شيء ..

صندغون : انك تنظر دائما بعين واحدة .. بل انك لا تكلف نفسك عناء الالتفات ، ولو قليلا، الى الجهة الاخرى (يشير الى الغرب) لقد يممت وجهك صوب الموصل لكي تدكها ، اليس كذلك ؟

تكودار : تلك هي مهمتي الاولى والاخيرة

صندغون : ولكن اذا جاءك من هو اقدر منك على الرؤية لاطراف المسالة جميعا ، انذار بان ظهرك مكشوف ، وانك قد تتلقى الضربة القاضية قبل ان تاتي على فريستك ، فماذا تقول ؟

تكودار : (يجيل عينيه بين صندغون وقادته) لست افهم شيئا !

صندغون : (محاولا انتزاع ابتسامة) هذا ما كنت اقوله قبل قليل !

تكودار : ماذا ايها القائد ؟

صندغون : (يصرخ) المماليك قادمون .. انهم على بعد خطوات منا ، ولن اسمح لنفسي بان اعيد معهم مأساة كتبغا في عين جالوت

تكودار : المماليك ؟!

صندغون : أربعة أيام او خمسة ويضرب شمس الدين البرلي ضربته القاضية وانت تتلهى بلعبة المنجنيقات ..

تكودار : في هذه النقطة معك حق ايها القائد .. ولكن ..

صندغون : (بالانفعال نفسه) ستقول ايضا امنحني فرصة اخيرة .. ولكن حذار ، فان ما لم تفعله في اربعة اشهر لا يمكن ان تفعله في اربعة ايام !

تكودار : لم اقل هذا .. انما اردت .. اذا سمحت لي .. اردت ان ..

صندغون : قل .. قل بسرعة ..

تكودار : لماذا لا نجابه المماليك في مكاننا هذا ؟ اننا نفوقهم عددا ..

صندغون : ومن قال لك ذلك ؟

تكودار : (مستمرا) ثم إن رفع الحصار عن الموصل بعد هذه الاشهر الطوال ، على امل العودة لحصارها ثانية ، سيمنحها فرصة لتعزيز دفاعها ولن يكون بمقدور ألف منجنيق يومها أن تدفعها الى الاستسلام ..

صندغون : عدنا الى حكاية المنجنيقات .. ان القرارات العسكرية العليا يا تكودار ، لا تصنعها الالة الحربية وحدها .. انها مسألة اكثر تعقيدا بكثير .. واعذرني اذا قلت لك انك لست ملما بها بما فيه الكفاية ، فتلك ليست مهمتك ..

تكودار : (متراجعا) آسف اذا كنت قد ازعجتك ايها القائد باقتراحاتي الخاطئة ..

صندغون : (صارخا) ايها القادة .. ايها الامراء .. اذنوا في المقاتلين بان يتجهزوا للرحيل فجر غد .. ان الضرورات الحربية الراهنة تحتم علينا فك الحصار .. على ان نرجع اليهم مرة اخرى ..

(يندفع الى باب الخيمة فجأة ، الامير المملوكي السابق الزين الحافظي وهو يصرخ)

الحافظي : لماذا ؟

(يتقدم اليه عدد من الحراس فيوقفونه على بعد خطوات من صندغون)

صندغون : (دهشا) انت ؟

الحافظي : (وهو يلهث) نعم ايها القائد

صندغون : دعوه فانني اعرفه جيدا .. انه من اتباعنا المخلصين .. ماذا وراءك يازين الدين؟

الحافظي : البشرى التي تريدها ايها القائد !!

صندغون : (دهشا) البشرى ؟!

الحافظي : على بعد خطوات منك ، وانت تريد ان تفك الحصار وترحل !

صندغون : (بنفاد صبر) تكلم يا رجل ، اوضح .. قل كل ما عندك فاني لا اكاد افقه شيئا ..

الحافظي : (بابتسامة واثقة) القسم الاكبر من النجدة المملوكية انحرف عن هدفه ، وما لبث قائدها سنقر الرومي ، بعد مغادرته دمشق بمراحل ، ان يمم وجهه غربا صوب انطاكية .. لقد دفعته ضرورات القتال ضد اصدقائكم الصليبيين هناك، الى ان يتخلى عن هدفه مؤقتا ..

صندغون : والبرلي ؟!

الحافظي : (بالابتسامة نفسها) كان ينتظر صاحبه على احر من الجمر ، اذ ان قواته في حلب لا تقدر على اداء المهمة لوحدها .. ان مجابهتكم ايها القائد ليست امرا يسيرا .. انه يحسب لها الف حساب ..

صندغون : ولكنه قادم الينا رغم كل شيء

الحافظي : (ماداً شفتيه بازدراء) محاولة جنونية ليس الا !

صندغون : ماذا تقصد ؟

الحافظي : انه ينتحر !

صندغون : (بنفاد صبر) ماذا ؟

الحافظي : يئس من انتظار صاحبه ، وادرك ان مهمته مع صليبيي انطاكية ستطول ، فقرر ان يتحرك وحده على راس عدة مئات من اصحابه هي كل ما يملك (يمد شفتيه) يريد ان يصير بطلا كصاحبه هذا (يشير الى سور الموصل) ..

صندغون : (وهو يحاول ان يكتم فرحته) أنت متأكد مما تقول ؟

الحافظي : (يتقدم خطوة اخرى وينحني امام صندغون) هذه رقبتي بين يديك ، وافعل بها ما تشاء ان ثبت لديك عكس ما اقول.

صندغون : (يرفع رأسه بيده ويربت على كتفه) لا داعي لذلك فنحن نعرفك جيدا يا زين الدين ..

الحافظي : ويمكنك ايها القائد ان تبعث طليعة من قواتك للتاكد مما اقول .. ان الامر لا يحتاج لاكثر من يوم واحد !

صندغون : (مبتسما) لا داعي لهذا ايضا (يهمس في اذن تكودار وعدد من القادة والامراء فيحرك هؤلاء رؤوسهم بالاقرار ، يرفع صوته قليلا) غدا صباحا .. سنرحل بكل تاكيد ولكن لقتال البرلي وسحقه قبل ان يصل الينا ، وسنرجع ثانية الى الموصل لكي نصفي معها الحساب بعد ان نكون قد تركنا عليها جندنا لمواصلة الحصار .. اليس كذلك يا تكودار ؟

تكودار : (يحاول هو الآخر ان يكتم فرحته) اذا سمحت ايها القائد فسأتولى انا قيادة

هؤلاء الجند (يشير بتباه الى منجنيقاته الاربعة والعشرين) ان لهذه الالات من يرعاها ، وليس غيري من يعرف كيف يتعامل معها ..

صندغون : (يربت على كتفيه) لك ما تشاء

تكودار : ومن يدري .. فقد ترجع ايها القائد فتجد الطريق مفتوحا امامك ..

صندغون : (وهو يهم بدخول الخيمة) لا تبالغ ايها الرجل ..

تكودار : لم تعصني ، يوما قلعة ، او يتمرد علي سور .. ولسوف ترى !

(ستار)

المشهد الخامس

(منتصف جمادى الآخرة

خيمة الميدان نفسها قريبا من جامع نور الدين محمود الذي تبدو منارته وجانب منه من فتحه الخيمة .. الملك الصالح يتصدر المكان ومن حوله كبار امرائه وقادته وموظفيه ..

الصالح : (مناديا الحاجب الذي يقف عند باب الخيمة) دعهم فليدخلوا

علم الدين : (للملك) اذا سمحت ايها الملك (للحاجب) هل فتشتهم جيدا ؟

الحاجب : بكل تأكيد

علم الدين : لا بأس من دخولهم اذن

(يدخل ثلاثة من الاسرى الحلبيين وهم على حالة واضحة من الاعياء ..)

الاسرى : (معا) سلاما ايها الملك

الصالح : اهلا بكم اخوانا في الدين

(يبتسم الاسرى بارتياح ملحوظ)

علم الدين : إنه هو الذي دفع بكم الينا .. اذن ..

احد الاسرى : من ؟

علم الدين : (بعصبية) صندغون طبعا ..

الاسير الثاني : أراد ان يحشر معنا كل الاسرى الذين حصدهم في معركته مع البرلي ..

علم الدين : كم يعني ؟

الاسير الثاني : سبعون او ثمانون ..

علم الدين : (بانفعال) لعبة مكشوفة.

الصالح : وما الذي جعلكم تقتصرون على ثلاثة ؟

الاسير الثاني : عدل عن رأيه في اللحظة الاخيرة ، ورأى ان هذا يكفي ..

الاسير الثالث : لعله خشي العاقبة ؟

الصالح : أية عاقبة ؟

الاسير الثالث : ان ننقلب عليه وننضم اليكم .. ثم انه توخى امرا يكفي ان يؤديه اثنان او ثلاثة ..

علم الدين : لعبة مكشوفة .. لقد تمرسوا على هذه الاساليب .. في اللحظات التي يصعب عليهم اجتياز الجدران العالية ، فانهم ينسابون كالافاعي لكي يتسللوا من الجحور الضيقة .. انني اعرفهم جيدا ..

الصالح : هيا .. قولوا كل ما عندكم .. فكما انه يعرف كيف يلدغ ، فاننا بدورنا نعرف

كيف نحمي انفسنا ضد السم !

الاسير الاول : (بحماس) لن نسمح له ان يلعب علينا .. او بنا ..

علم الدين : (بسخرية) هكذا ؟

الاسير الاول : ماذا يتصور ؟ هل ان خيانة الحافظي تكرر نفسها في صفوف المسلمين بهذه البساطة ؟

(ينظر الصالح وعلم الدين احدهما إلى الآخر دون ان يجيبا)

الاسير الاول : (مستمرا) تركناه يتخيل الامر على هواه فانفسح امامه الامل وقال ، كمن عملت الخمرة في راسه ، مخاطبا ايانا ، ستفعلون ما اطلبه منكم بكل تاكيد ..

الاسير الثاني : وكان الزين الحافظي يجلس الى جواره في غبطة كاملة ، مثنيا على كل ما يقوله ، وكان صندغون يلتفت اليه بين لحظة واخرى

الاسير الاول : إن الانتصار غير المتوقع يسكر ايها الملك .. كان على وشك الانسحاب .. وجاءه يهوذا هذا لكي يعطيه الاخبار الحقيقية ويمنحه فرصة الضربة القاضية .. وهو يهيم في نشوته ، انقسم الزين الحافظي الى رجلين وغدا الاثنان اربعة، وعبر سلسلة متواصلة من الانشطار تحول الاسرى السبعون او الثمانون جميعا ، الى ما كان يشتهيه الطاغية ..

الاسير الثالث : وقال بانه سيطلق سراحنا ، وسيسمح لنا بدخول الموصل كما لو كنا هاربين من المعركة .. وها هنا في المدينة التي اعياها الانتظار ، نضرب الضربة الماكرة التي يشتهيها الرجل ..

الصالح : ماذا ؟

الاسير الاول : ننقل اليكم نبأ الهزيمة التي مني بها البرلي لكي نضعف معنوياتكم ..

الصالح : (مبتسما) هذه نعرفها جيدا .. وليس ثمة من حاجة الى من يخبرنا بها !!

الاسير الاول : ليس هذا فحسب ، انه ملأ رؤوسنا بتعليماته ، وقال ان علينا ان نمارس دورنا بعفوية في خطوطكم الخلفية ، والا نحيطه باية مظنة ..

علم الدين : مثلا ؟

الاسير الاول : وهل غير التضخيم من شأن العدو ، ونشر الشائعات المضادة بين الاهالي لتدمير قدرتهم على المقاومة ؟

الصالح : ولكننا سنعرف كيف نرد ، ولسوف تنقلب عليه لعبته ..

الاسير الاول : والله ايها الملك ، لو انه اطلق سراحنا الف مرة لعدنا لقتاله ..

الاسير الثاني : (بثقة) ان الامر واضح جدا .. قتال بين معسكري الايمان والكفر .. فكم منا

على استعداد لان يبيع آخرته بدنياه ، بهذه الحفنة القليلة المتبقية لنا من السنين؟ الحفنة التي تتآكل باسرع مما تتآكل حفنة الدراهم الحقيرة نفسها ، من منا ؟

الاسير الثالث : لقد اظهرنا موافقتنا على خطته ، فقط لكي نتحرر من قبضته ونصل اليكم لكي نقاتل معكم .. لقد كانت مهمة البرلي في الاساس هي ان ندخل الموصل ونمكنها من مواصلة المقاومة ريثما تاتي نجدة اكبر تقدر على مجابهة المغول .. انه كان يعرف ان اية محاولة متهورة تقوده الى الانتحار ، بعد ان عجز من انتظار نجدة دمشق التي يقودها سنقر الرومي .. كان هدفه ان يتسلل بنجدته التي لم تتجاوز الالف الا قليلا الى مدينتكم المجهدة ، لكي يمنحكم قدرات امضى على المقاومة .. وبعدها قد يجيء الخلاص ..

علم الدين : من يدري ؟ لعله انسحب الى الشام لكي يعيد الكرة .. هذا اذا لم يكن قد توفي في الطريق بفعل جراحه المثخنة ..

الاسير الثالث : اننا نعرفه جيدا ايها القائد .. انه على استعداد لان يعيد الكرة عشرات المرات..

الصالح : (مبتسما) واذن .. فان صندغون قد قذف بكم الينا لدفعنا الى الاستسلام ؟

الاسير الاول : هكذا توهم .. لقد كان الحافظي الى جواره تماما واعتقد ان كل مهزوم يمكن ان يغدو واحدا اخر مثله تماما ، يقف في طابور المذلة الطويل مطاطئا راسه لكي يتلقى الامر ، ويمارس الخيانة !

الصالح : (وهو يشير الى منارة الجامع النوري الشاهقة) كان عليه ان يتعلم من هذه !! انه يراها جيدا من موقعه .. اليس كذلك ؟ ولكنه لا يريد ان يتعلم .. ان القائد المجنون بالنصر ، الموتور بصمود الخصم باكثر مما كان يتوقع ، لا يرى إلا ما يغذي تصوره المحموم .. انه يرى الحافظي جيدا ، اليس كذلك ؟ ولكنه لا يريد ان يرى هذه المنارة العالية التي تجتاز ثقل الارض وشدها وتتطاول في السماء ، موحدة ، متفردة ، صامدة ، شاهدة على ان هذا الدين لن يهزم ، وان اصحابه الذين ما احنوا رؤوسهم الا لله ، لا يمكن ان ينحنوا لمخلوق كائنا من كان .. قد تقولون ان المسلمين هزموا مرارا ، وان محاولتنا هذه .. من يدري؛ لكن هذه مسألة اخرى تماما ... اننا زائلون .. بينما الدين باق ، ليس وحاشاه كاسطورة معلقة في الفضاء ، ولكن من خلال اتباعه الذين سيواصلون الطريق

الاسير الاول : (بحماس) نحن في رسم الخدمة ايها الملك ، فمرنا بما تشاء ..

الصالح : (ضاحكا) ليس قبل ان ترتاحوا قليلا ..

علم الدين : ورفاقكم هناك ؟

الاسير الاول : ماذا تعني ايها القائد ؟

علم الدين : ألا يخشى عليهم ؟

الاسير الاول : (بثقة) وانى لصندغون ان يعرف ما الذي فعلناه هنا ؟ انه لا يزال مخمورا بخيانة الحافظي .. بهذا النموذج الذي اعترف بانه التقاه في كل مدينة حاصرها أو وطاتها قدماه .. ان ابن العلقمي الذي سعى إلى تسليم بغداد ، والحافظي الذي يتمنى تسليم الموصل ، كثيرون ولا ريب ، ولكنهم ليسوا كل المسلمين على اية حال .. انهم مجرد دمامل متقرحة على الجسد المحموم .. ولكن هذا الجسد كثيرا ما كان يسترد صحته وعافيته فيعرف كيف يفجر هذه الدمامل .. ويغسلها ..

(يدخل احد القادة مسرعا وعلى وجهه ملامح الفرح .. يتقدم خطوات وسط الخيمة)

القائد : اتسمح ايها الملك ؟

الصالح : (ينهض واقفا فينهض معه المحيطون به) قل .. قل .. فاننا نريد ان نعرف (ينظر الى الاسرى) ان صندغون يريدنا ان نستسلم.

القائد : لقد سحقنا قوة مغولية كبيرة ارادت اكتساح السور من جهاته الجنوبية قريباً من باب الجسر .. قتلنا منهم ثمانين .. وجرحنا قائدهم صدر الدين التبريزي الذي وجد نفسه مضطرا الى التراجع بقوته صوب معسكرات الاعداء .. اتدري ايها الملك .. ان المنجنيقات التي سهر على صنعها نجارو الموصل تمطرهم الان سيلا من الحجارة والنار ..

الصالح : (وهو يربت على كتف القائد) هذا لا يكفي ..

القائد : سنفعل ما في مستطاعنا ان شاء الله ..

الصالح : اقصد ان الحجارة والنار وحدهما لا تكفيان .. يجب ان يكون الرد اشد عنفا ..

القائد : (بحيرة) وكيف ؟

الصالح : امطروهم برؤوس قتلاهم .. لقد رمانا باصحابنا ، وقد آن الأوان لكي نرميه برؤوس اصحابه !!

(تعتيم)

(خيمة صندغون قريبا من باب العراق جنوبي الموصل .. يتصدر صندغون المكان .. ويحيط به امراؤه وقادته ..).

صندغون : (للحاجب الذي يقف عند باب الخيمة) دعه فليدخل ..

(يدخل صدر الدين التبريزي وهو يجر خطاه على الارض جرا وقد نالت منه الجراح الذي لا يزال بعضها يشخب ..)

التبريزي : سلاما ايها القائد !

صندغون : (بلهجة اللوم المبطن بالوعيد) ماذا يا صدر الدين ؟

التبريزي : لقد كانت مقاومتهم فوق طاقتنا !

صندغون : (بالهدوء نفسه) وماذا في ذلك ؟

التبريزي : كدنا ان نحتلّ البرج الجنوبي الشرقي ..

صندغون : (يمط شفتيه) ثم ؟

التبريزي : لو حدث ذلك لدخلنا المدينة ايها القائد

صندغون : (الحركة نفسها) وبعدئذ ؟

التبريزي : بعدئذ نبعث اليك من يقول لك تفضل ايها القائد المنتصر

صندغون : وتجيئني انت لكي تقول لي هذا ، وانت تنزف دما ؟ (يشير اليه بازدراء ثم يصرخ) صدر الدين ! ما تصورتك جبانا إلى هذا الحد .. لقد منحتهم بفعلتك هذه سلاحا جديدا يا صدر الدين !

التبريزي : وما الذي تريدني افعل اكثر من هذا ايها القائد ؟ لقد ضحيت بثمانين من خيرة رجالي ..

صندغون : وتقولها ، هكذا ، بصراحة ؟ ثمانون من زهرة المهاجمين المغول الذي طوت قبضاتهم القلاع والحصون ، ودكت الاسوار ، يحصدون في ساعة واحدة ؟ لقد منحتهم سلاحا جديدا !

التبريزي : (منكمشا) اي سلاح هذا ؟

صندغون : (ملتفتا الى امرائه وقادته) كنت اقول دائما ان قادتي لا يفهمون الامور جيدا ، لانهم لا يقلبونها على وجوهها .. انهم ، كما قلت يوما لقائد المنجنيقات تكودار، ينظرون بعين واحدة ..

التبريزي : (بانفعال مكبوت) وما الذي كنت تريد ان نفعله ؟

صندغون : (يرجع الى هدوئه) تسألني عن السلاح الذي منحته للصالح واصحابه .. اليس كذلك ؟ اذن فاعرف ان مقاومتهم ستتطاول اكثر فاكثر .. انها تدخل

الان شهرها السابع ، ومن يدري فلعلها لن تنتهي ابدا .. الان بدات ادرك ما الذي يعنيه تطاول منارتهم في السماء !

الحافظي : (مقاطعا) لا يهمك الامر ، فعما قريب ستعرف كيف ستفعل المهمة التي ارسل الاسرى الحلبيون لادائها فعلها ، ستقوضهم من الداخل ايها القائد ..

صندغون : (غير مكترث به) هل عرفت الان السلاح الذي منحتهم اياه ؟

التبريزي : نعم .. نعم .. هذا واضح ..

صندغون : الان يبدو لك واضحا .. وبعد ايام .. وربما اسابيع سيتضح لك اكثر فاكثر ، عندما ترى موجة جديدة من الحماس تغطي مقاومتهم العجيبة هذه .. وعندما ترى الزمن يتراكض كمياه هذا النهر ونحن قاعدون هنا نتلهى بانتظار المفاجات ، ونجتر الذكريات عن انتصاراتنا الماضية واكتساحنا للمواقع والحصون .. (يصرخ) صدر الدين !

التبريزي : نعم ايها القائد !

صندغون : ليس ثمة معنى لبقائنا هكذا ! واخشى ما اخشاه ان تنقلب علينا دائرة السوء .. اتدري ما الذي اريده منك ؟

التبريزي : تحت امرك ايها القائد ..

صندغون : خذ معك جماعة من الفرسان ، وانطلق باقصى ما تستطيع من سرعة الى همذان .. قل لهولاكو اننا بحاجة الى نجدة ملحة ، واننا لسنا مستعدين لتلقي ضربة اخرى كتلك التي تلقيناها في عين جالوت .. باقصى ما تستطيع من سرعة يا صدر الدين ..

التبريزي : (ينحني وهو يهم بمغادرة المكان متلمّسا جراحه) حاضر ايها القائد ..

(ستار)

المشهد السادس

(منتصف شعبان خيمة الميدان في الموصل يتصدرها الملك الصالح وحوله امراؤه وقادته ..

شهاب الدين : (بلهجة ذات معنى) لقد نفدت الاموال ايها الملك !

الصالح : (مطرقا لا يجيب) ..

شهاب الدين : كل ما لدينا من مخزون أكلته الحرب .. والان فانني اعتمد على جهود المتبرعين ، ولكنها لا تسد الحاجة .. بل لا تكاد تغطي شيئا .. ان مخازن التموين لا تحتاج الا ان تكنس ويرش عليها الماء .. اما النقود ..

علم الدين : (مقاطعا) شهاب الدين .. ليس هذا اوان اجترار الاحزان ..

شهاب الدين : (غير ملتفت اليه) ان القحط يتآكل الناس .. انهم يتسللون الى الصحراء لكي يموتوا هناك ..

علم الدين : لو ان الامر اقتصر على القوت والاموال لهان الامر !

شهاب الدين : أبداً .. فانهما العصب والاداة .. وها انني لا اقدر اليوم على الاستجابة للمطالب اليومية الضرورية .. اذا اردت الصراحة ..

علم الدين : (بحزن) اعرف هذا يا شهاب الدين .. انه من قبيل البديهيات ولكن (يلتفت الى الملك ..)

الصالح : على اية حال فان هذا ليس وحده المشكلة .. هناك ما هو اخطر بكثير ..

شهاب الدين : (بتحفز) مثلا ؟

الصالح : يبدو انك لا تعرف شيئا عما يجري في الهواء الطلق .. ان الحسابات والارقام قد حجبت عنك الرؤية ..

شهاب الدين : الحق انني لم اعد افهم ما تقول ايها الملك

الصالح : (بحزن) إذا اردت الحق فانه لم يعد ثمة هواء طلق يا شهاب الدين !

شهاب الدين : (بدهشة) كيف ؟

الصالح : لقد افترسه الوباء ..

شهاب الدين : (مع نفسه) اعرف ذلك !

الصالح : أما في الخارج فان قوة جديدة تنضاف اليهم .. قوة جاء بها التبريزي صباح هذا اليوم .. من جهتنا فليس ثمة اي امل بوصول نجدة مستعجلة تعيد الى القوى توازنها المفقود .. (يتنهد وهو يلتفت الى قائده) اننا نكاد نختنق يا علم الدين ..

علم الدين : (متشبثا بالامل) لقد علمتنا ايها الملك كيف تخرج بنا من المآزق .. كيف تمنحنا الهواء كلما اوشكنا على الاختناق ..

الصالح : هذه المرة فالمسالة تختلف ..

علم الدين : ومع ذلك فقد حاولت .. منذ اثني عشر يوما وابنك علاء الملك محتجز لديهم!

الصالح : قلت في نفسي ان مدينتي قدمت ما فيه الكفاية .. لم يال جندها وجماهيرها جهدا .. دفعوا كل ماقدروا على دفعه .. وها هم الان محاطون بالوباء والجوع .. اتدري يا علم الدين .. انني اعرف جيدا الاعيب صندغون .. لقد خبرته حتى النخاع ، واخشى ما اخشاه ان يتصورني مغفلا ، قليل الحيلة ..

علم الدين : حاشاك ايها الملك ..

الصالح : (بحزن) بل هذا هو الصواب .. واغلب الظن انه تصورني كذلك والا فمن يصدق ان ارسال ابني الذي لم يتجاوز السنوات الست من عمره ، سيحل المشكلة ، وسيدفع المغول الى رفع الحصار ؟ (يتنهد) لكنها الضرورات يا علم الدين تدفعك دفعا لان تبدو للناس مغفلا مهما كنت تملك من ذكاء ..

علم الدين : اعرف .. اعرف .. ايها الملك .. لقد كان صندغون يتبادل كرة وهمية مع سيده هولاكو ، وخيل اليه خبثه رسالة وصلته من سيده مضمونها (ان علاء الملك – ابنك – ما له عندنا من ذنب ، واننا وهبنا له ذنب ابيه ، فسيره الينا لنصلح امرك معه) ! فبعث بها اليك ..

الصالح : لقد توهم كذلك انني صدقته وبعثت بابني لكي يصلح الامر ويرحل المحاصرون ! وها هوذا قد مضى على احتجازه لديهم اثنا عشر يوما دون ان يحدث شيء ..

شهاب الدين : (بخبث) ما الذي دفعك الى ارساله اذن ايها الملك ؟

الصالح : (كمن يتذكر) كلا .. فالمسألة هذه المرة تختلف .. لقد ارسلني ابي الى هولاكو عند دخوله بغداد لكي اكون عربون المذلة .. لم يكن ابي محاصرا ، ولم تكن الموصل قد شبعت خوفا وجوعا واعياء لاكثر من ستة اشهر .. كان مترفا ، متنعما .. وكان يريد ان يحمي هذا الترف والنعيم ، متنازلا في مقابل ذلك عن اي شيء .. اما انا حيث لا يزال جرحه ذاك ينزف في اعماقي ، فلن يكون بمقدوري ان اعيد الدور .. لقد ارسلت طفلا لا يعرف كيف يقول نعم .. او لا .. شهاب الدين ، لقد بعدت كثيرا عن الموضوع ..

لم اجبك على سؤالك لحد الان .. اليس كذلك ؟

شهاب الدين : (متراجعا) لا يهم أيها الملك ، فكلنا نعرف اخلاصك ولكنني اردت فقط ان اعرف ..

الصالح : (مقاطعا) اذن فهكذا .. عندما تقفل امامك الابواب .. عندما تجرب كل الدروب فتجدها في نهاية الامر مسدودة في وجهك .. عندما تجد شعبا بكامله ينتظر على يديك معجزة الخلاص وانت تدرك جيدا انه يستحيل عليك ان تقدمها له .. عندما تجد جندك الذين احبوك حتى العظم ، يتساقطون جوعا ومرضا واعياء .. يموتون امام عينيك وهم يبتسمون حتى اخر لحظة بانتظار شيء ما يوازي محبتهم ،، فانك تضطر يا شهاب الدين الى ان تمارس نوعا من .. لنسمه الخداع مع الذات .. نوعا من التصديق بحدوث المعجزة .. ولكن ذلك يجب الا يكون على حساب الاخرين الذين استنزفوا تماما .. بل على حسابك انت .. فانك ستفعل بكل تاكيد .. وهكذا وجدتني مضطرا لان ادفع ابني وانا اعرف انه سيقتل ، كما اعرف انها لعبة مكشوفة لكنني دفنت راسي في الوهم .. في التضحية .. لكي امنح اصحابي املا .. انتظارا .. ولكي تظل الابتسامة معلقة على شفاههم وهم يموتون .. شهاب الدين .. اذا كان ابي قد فرط بي لكي يكسب هو شخصيا ، فانني ضحيت بابني لكي تصمد مدينتي يوما آخر على الاقل .. وها انت ذا ترى اثنا عشر يوما كانت تمنح مواطني وجندي في كل يوم شيئا من القدرة على الانتظار ، قائلين ما دام انه قد صدق فلا بد ان نصدق نحن الآخرين !

علم الدين : (باشفاق) حسبك ايها الملك .. فان نوايا القائد عندما تكون مكشوفة الى هذا الحد .. نقية الى هذه الدرجة .. مفتوحة قبالة جماهيره كالسماء الزرقاء ..

فاه يكون من العبث .. من نكران الجميل ، أن يُسأل عن قراراته مهما كانت غامضة محيرة .. انها ايها الملك تتدفق من بئر مترعة بالحلاوة والنقاء ، فعلام السؤال ؟

الصالح : كلا يا علم الدين .. ان شهاب الدين قد منحني الفرصة لكي اخرج العناء الذي اجهد اعصابي منذ اعطيتهم ابني علاء الملك .. لقد تحررت اذن بعض الشيء ، رغم انني ، ولا اكتمك القول ، بدات اشعر بالذنب !

علم الدين : الذنب ؟

الصالح : انه طفل لا يعرف كيف يقول نعم .. او .. لا .. ومع ذلك فقد دفعت به الى مصيره المشؤوم ..

علم الدين : ومن قال بانهم سيلحقون به الاذى ؟ اطمئن ايها الملك ، فهم لم يبلغوا بعد حافة الكراهية لكل ما يمس الانسان رجلا كان ام طفلا .. على الاقل حفاظا على مصلحتهم .. على سمعتهم !!

الصالح : (يضحك) سمعتهم ؟! انهم سيؤذونه .. اؤكد لك .. ان لم يكن الان فبعد ايام .. أو اسابيع .. ان وقفة الموصل في وجوههم اكثر من نصف عام ستدفعهم إلى الجنون ، ان لم تكن قد دفعتهم فعلا .. ولن يميزوا يومها ، وهم يمارسون انتقامهم المدوّم ، بين كبير وصغير .. لقد تحدتهم الموصل .. عرقلت اندفاعهم طويلا ، وهذا يكفي لعقابها .. ولسوف ترى يا علم الدين .. ولكن لا باس !

(يدخل الحاجب ويهمس في اذن الصالح ثم ينسحب)

الصالح : (ينهض قائما فينهض معه قادته وامراؤه) ها قد جاء دوري .. كنت اعرف ذلك جيدا ..

علم الدين وشهاب الدين : (معا) ماذا ايها الملك ؟

الصالح : ان صندغون يعرف ان المدينة اصبحت اخيرا مجرد اسم !! وان الذين يدافعون عنها ليسوا مقاتلين بمعنى الكلمة ، ولكنهم اشباح استنزفها الجوع والوباء والخوف والاعياء .. اشباح قاومت طويلا وانتظرت كثيرا ، فما اعانها احد .. لقد نادت فما سمع احد نداءها ..

علم الدين : (بتوجس) ماذا ايها الملك ؟

الصالح : انهم يريدونني انا هذه المرة !

علم الدين وشهاب الدين : (معا) انت ؟

الصالح : وقال صندغون بانني ان لم افعل فلسوف يدخل البلد ويعمل فيه السيف (يتنهد)

علم الدين : وستفعلها ؟!

الصالح : وماذا تظن يا علم الدين ؟! انها فرصتي لكي امنح المدينة التي احبتني واحببتها اخر ما استطيع ، ولو من قبيل خداع النفس الذي حدثت عنه

شهاب الدين قبل قليل .. لا بد ان افعل شيئا .. وها انت ذا ترى .. فان عدم خروجي يعني المجزرة ، بكل تاكيد .. فانه لم يتبق ما يقف في وجوههم أو يلوي أذرعتهم .. كان ذلك زمن يا علم الدين .. اما اليوم فانت تعرف ذلك جيدا .. ليس ثمة درهم واحد ولا رغيف من الخبز .. اليس كذلك يا شهاب الدين ؟ ثم ها هوذا الوباء يشدد قبضته على جندي ..

علم الدين : (باستنكار) واذا خرجت فهل سيغير ذلك من الامر شيئا ؟

الصالح : ان الذي كتبه الله لهو المكتوب .. ولكننا مع ذلك يتحتم علينا ان ناخذ بالاسباب .. هكذا علمنا رسول الله ..

علم الدين : هل سيغير خروجك شيئا ايها الملك ؟

الصالح : ولم لا ؟ ألا يمكن ان يخلص المدينة من الذبح ؟

علم الدين : ما الذي تقصد ؟

الصالح : سابذل جهدي لكي ادفع عنها هذا المصير ..

علم الدين : ولكنهم لا يُؤتمنون ايها الملك

الصالح : (بحزن) اعرف ذلك .. اعرفه جيدا .. ولكنني يجب ان اواصل الطريق حتى نهايته .. انه لم يعد بمقدور الموصل ان تقاوم يوما اخر يا علم الدين .. لقد اعتصرت اخر ما في جعبتها .. وهي الآن تنتظر الحكم ، فاذا لم اخرج ذبحوها عن اخرها .. انني اعرف ما يدور بخلدك ، ولكنني اقول في نفسي اذا كان في خروجي هذا احتمال واحد من مئات الاحتمالات لحقن قطرة واحدة من دم مسفوك .. فعلت .. غير نادم ولا متردد .. لقد بدأت الطريق ويتحتم ان اقطعه حتى النهاية ..

(تعتيم)

(خيمة صندغون حيث يرى جالسا هناك يحيط به قادته وامراؤه .. يتقدم الحاجب من يهمس في اذنه ..)

صندغون : دعهم فليدخلوا

(يدخل الملك الصالح متلفّعاً بالملابس البيضاء وبصحبته حشد من الامراء)

صندغون : ها قد جئت اخيرا !!

الصالح : (لا يرد) ..

صندغون : أما كان بمقدورك ان تجنّب مدينتك هذا العناء ؟

الصالح : (لا يرد) ..

صندغون : لقد اخرت اندفاعنا .. كان يجب ان تعرف ان امامنا طريقا ممتدا ، وان لدينا حسابا طويلا مع المسلمين نريد ان نصفيه !

الصالح : (بصوت متيبس) صندغون !! ما تقوله اعرفه جيدا لأنني صنعته بنفسي ، ولن اكون رجلا ان تبرأت مما صنعته يداي .. ولكنني اسالك ..

صندغون : (بدهشة) ماذا ؟

الصالح : أسالك عن ابني .. وارجو ان تكون عند كلمتك ..

صندغون : اوه .. علاء الملك .. اليس كذلك ؟

الصالح : (بنفاد صبر) نعم يا صندغون ..

صندغون : اجلس قليلا لكي ترتاح .. ولسوف اخبرك ..

الصالح : لن اجلس قبل ان اطمئن عليه ..

صندغون : (مبتسما) لقد ذبحت مدينة بكاملها ، ثم ها انت ذا تجيء لكي تطمئن على ابنك! ماذا تسمي هذا ايها الملك ؟

الصالح : (بحزن) لك ان تسمه ما تشاء .. ان المهزوم لا يستطيع ان يسمي لان كل ما سيقوله هراء في سمع المنتصر ..

صندغون : (بالابتسامة نفسها) ها انك تعترف اخيرا !

الصالح : (شاردا) بم ؟

صندغون : بالهزيمة طبعا !!

الصالح : (يتنهد) انك تراها بعينيك ياصندغون ، فهل بمقدوري ان اغير منها شيئا ؟! ولكنني اسالك عن ابني ..

صندغون : اذا شئت ان نستبدلك به فعلنا ..

الصالح : (بشيء من الامل) يعني انه ..

صندغون : (مقاطعا) موجود بكل تأكيد .. نحن عند كلمتنا ايها الملك ..

الصالح : (محاولا ان ينتزع ابتسامة) اعرف ذلك ايها القائد ..

صندغون : (محاولا ان يتجاهل) ولسوف يتاكد لديك ذلك (يصفق فيدخل الحاجب) جئني بعلاء الملك !

الصالح : اعده الى المدينة ولسوف احل محله ..

صندغون : بالتأكيد أيها الملك .. بالتاكيد (بخبث) ولكن ليس قبل ان تطمئن على ما هو اهم منه بكثير ..

الصالح : ماذا ؟

صندغون : مدينتك التي يخنقها الحصار ..

الصالح : ليس الحصار وحده يا صندغون

صندغون : (يضحك) اظنك تريد ان تقول ..

الصالح : (مقاطعا) هنالك اشياء كثيرة قد لا تدركها وانت قاعد هنا في خيمتك !!

(يدخل علاء الملك .. يجيل عينيه في انحاء الخيمة وما تلبث ان تقع عينه على ابيه ..)

علاء الملك : (بلهفة) ابتاه .. (يهرع الى الصالح ويلثم يديه) ..

الصالح : (يربت على كتفه بحنان دون ان يقول شيئا) ..

صندغون : لم تقل لي ايها الملك ..

الصالح : (بشرود) عم ؟

صندغون : بعد ان اطمأننت على ابنك .. وتاكد لديك صدق كلماتي .. الا تريد ان تطمئن على المدينة ؟!

الصالح : لقد جرنا الحديث ياصندغون .. نسيت ان اقول لك انني ما جئت الا من اجل هذا ..

صندغون : يعني ليس من اجل ان ترى ابنك ؟

الصالح : عندما بعثت الي تطلبني ، لم يدر بخلدي ، او خلد اي واحد من رجالي ، انك تسعى لكي تمنحني بعض السلوى بلقاء ابني والاطمئنان عليه .. انني اعني ما اقول ايها القائد .. ولنكن صرحاء ، ولا داعي البتة للالتفاف حول الكلمات وتضييع الوقت .. انني ما جئتك الا من اجل مدينتي !

صندغون : حسنا اذن ، فلندخل في الموضوع ، ولكنني لا زلت اقول انك جئت متاخرا ..

الصالح : سألتك ان نسعى الى هدفنا بسلوك اقرب الطرق .. ان الوقت لا يتسع

للدوران ..

صندغون : (مستمرا) ان الموصل مكشوفة امامنا تماما .. وانني اعرف جيدا ما الذي يجري فيها ..

الصالح : (بنفاد صبر) فلماذا بعثت اذن في طلبي ؟

صندغون : قلت في نفسي : امنحهم يا صندغون فرصة أخيرة !

الصالح : هيا اذن .. قل .. ولسوف تتلقى جوابي .. ولن اطيل عليك .. نعم .. او .. لا .. انني في وضع لا يمنحني بينهما اي خيار اخر ..

صندغون : (وهو يحرك كفه على ذقنه بهدوء) ان مشكلتك انك متفائل اكثر مما يجب ! ولقد اعيانا تفاؤلك ايها الملك ..

الصالح : (بدهشة) لا افهم ما تقول ..

صندغون : الآن ليس ثمة خيار على الاطلاق !

الصالح : (يحدق فيه دون ان يقول شيئا) ..

صندغون : يعني انك اذا اردت ان تخلص مدينتك من الذبح ، فارجع اليهم وقل لهم ان يفتحوا لنا الابواب .. مرهم بذلك .. واعلمهم بان صندغون سيمنحهم الامان ان فعلوا .. والا ..

الصالح : (مقاطعا) اعرف ما ستقول يا صندغون ، فلا داعي لذلك ، لانني على استعداد لقبول الامان ونقله الى الموصل .. ولكن (يصمت).

صندغون : قل ايها الملك ، فما دمنا وضعنا خطواتنا على بداية الطريق الصحيح فلا بأس ان تقول كل ما عندك ..

الصالح : (بتردد) في النفس شيء ايها القائد ..

صندغون : لا افهم تماما ..

الصالح : أريد ان اطمئن اكثر على الامان الذي ستمنحه الموصل .. انت تعرف ان المسالة ليست صفقة سهلة تكفي فيها الكلمات والتواقيع .. انها مصير آلاف من مواطني الذين احببتهم واحبوني .. انني اريد ان احظى بقدر من الثقة .. من اليقين .. لكي ارجع وانا قرير العين ..

صندغون : بم تريد ان اقسم لك ؟ انني مؤمن مثلك ايها الملك ، ولكن وفق قناعتي الخاصة .. اتريد ان اقسم لك بالرب ، بالروح القدس ؟

الصالح : (بالتردد نفسه) والله .. ما ادري .. ما اقوله .. لك .. يا صندغون .. لو ان الامر يتعلق بي شخصيا لما اطلت معك .. ولقد رايتني جيدا اسعى للوصول

الى الهدف عبر خط مستقيم .. ولكنه يتعلق بمصير مدينة بكاملها ..

صندغون : (بغضب مكبوت) لو انك سلكت الطرق المستقيمة منذ البدء لما بلغت بمدينتك هذا المصير الذي تخشاه ..

الصالح : هذه مسالة أخرى ..

صندغون : بل هي عين المسألة (بنفاد صبر) على اية حال انني اريد ان تعطيني جوابك الاخير .. لقد تحدثنا بما فيه الكفاية ..

الصالح : (بحزن) سأرجع اليهم ياصندغون .. سأرجع اليهم .. ولكنني اريد ضمانا ..

صندغون : ستحمل معك منشورا بالامان يتضمن القسم الذي تطلبه .. هذا هو كل ما عندي ..

الصالح : (مع نفسه) لا اقصد هذا (يرفع صوته) ولكن لا باس ..

صندغون : هل ثمة شيء اخر ؟

الصالح : بكل تاكيد ..

صندغون : ماذا ؟

الصالح : (مشيرا الى علاء الملك) ابني !

صندغون : اوضح ايها الملك ، فانني لا افهم ما تقصد ..

الصالح : سيرجع معي طبعاً ..

صندغون : (يبتسم) في هذه المسألة يؤسفني ان أرفض طلبك.

الصالح : (قلقا) لماذا ؟

صندغون : سيظل ابنك معنا ..

الصالح : ولم ؟

صندغون : الامر واضح جدا .. نريد ان نطمئن تماما على وفائك بالتعهد الذي ستقطعه على نفسك ..

الصالح : أنا ؟

صندغون : ولم لا ؟ ان الذي يقف بوجهنا هذه الاشهر الطوال .. يتحدانا بقدراته المحدودة، يمكن ان ينقلب علينا مرة اخرى ويواصل التحدّي ، إننا .. اننا نعرف خامات الرجال جيدا ايها الملك ..

الصالح : ولكنك تعرف ما الذي يجري في الموصل يا صندغون .. انت الذي قلت ذلك والا ما بعثت في طلبي ، ولما جئتك بدوري !

صندغون : مع ذلك .. مع ذلك ..

الصالح : والام سيظل محتجزا لديكم ؟

صندغون : من هذه الناحية اطمئن .. سوف ناتي به معززا مكرما لكي نسلمه اليك لحظة دخولنا الموصل ..

الصالح : (بتوجس) ولكن ..

صندغون : لقد ضمنت ايها الملك حياة الآلاف من اصحابك ، فكيف لا تضمن طفلا عمره ست سنين ؟

الصالح : (وهو يسحب ببطء يده الملقاة على كتف ابنه ويهم بمغادرة المكان) لا حول ولا قوة الا بالله !

(ستار)

المشهد الاخير

(الثالث من شوال :

دار المملكة المطلة على نهر دجلة .. وتبدو من مدخلها الغربي الواسع جوانب من مدينة الموصل ، خالية تماما وقد تهدم بعضها .. اما الاسوار فنلمحها وقد ازيلت تقريبا .. صندغون يقف عند المدخل يحيط به حشد من الامراء والقادة، ونرى من بينهم تكودار وصدر الدين التبريزي والزين الحافظي وعددا من اهالي المدينة ..)

صندغون : (بقلق) اخشى ان يكون قد تسلل اليهم ثانية ..

تكودار : من ؟

صندغون : ومن غير اصدقائه المماليك ..

التبريزي : لقد احكمنا الرقابة جيدا على مخارج المدينة ومداخلها ايها القائد ، ولن يكون بمقدور احد ، كائنا من كان ، ان يفلت من قبضتنا ..

صندغون : مع ذلك .. مع ذلك ..

(يدخل الصالح بادي الإعياء مغموما .. ينظر افراد الحاشية بعضهم الى بعض بدهشة ممتزجة بالفرح ..)

الصالح : لا داعي للقلق يا صندغون .. ها انا ذا قد جئتك ..

صندغون : (يتراجع خطوتين دهشا هو الاخر) .. ولكن ..

الصالح : ها انت ذا ترى (يشير الى المدينة المهدمة المهجورة) لم يتبق شيء يحرص الانسان عليه .. تسعة ايام وانتم تحصدون رؤوس الرجال والنساء والاطفال .. انظر جيدا .. لم يكد يبقى شيء اسمه الموصل .. لقد تركتموها بلاقع يا صندغون .. والذين افلتوا من سيوفكم يهيمون الان على وجوههم في الجبال والمغارات بانتظار الموت ..

صندغون : (محاولا ان ينتزع ابتسامة) كنت تعرف هذا جيدا ، ومع ذلك اخترت ان تقف في وجوهنا .. يوم بشهر ايها الملك (يضحك).

الصالح : هذه مسالة تحدثنا عنها بما فيه الكفاية ، في خيمتك هناك ..

صندغون : بل هي جوهر الموضوع ..

الصالح : وكلمتك ايها القائد ؟

صندغون : كلمتي هي ان انفذ امر سيدي هولاكو ، وان امضي الى اطراف العالم ..

(يهز افراد الحاشية رؤوسهم مؤيدين)

الصالح : (بعصبية مكبوتة) لقد نقضت الكلمة يا صندغون .. اقسمت بالرب وبالروح القدس انك ستدخل المدينة سلما اذا اسلمت اليك قيادتها .. منحتها الامان فاطمانت اليك .. انظر جيدا .. لقد دفنت الروح القدس تحت الانقاض ، ذبحتها بسكين الحقد!

التبريزي : اعرف كيف تتكلم ايها الملك !

الصالح : (غير ملتفت اليه) لقد كذبت علي ايها القائد ..

تكودار : (يتقدم خطوة وهو يتحسس سيفه) اتسمح لي ايها القائد ؟ لقد تجاوز الحدود ..

صندغون : (مشيرا اليه ان يتراجع) ليس الان ، فتلك مسالة سأَبت بها فيما بعد (ينظر بازدراء الى الصالح) وماذا بعد ايها الـ ..

الصالح : لم اعد ملكا يا صندغون .. يمكنك ان تدعوني باسمي .. ركن الدين !

صندغون : (يضحك) ركن الدين .. لقد خدعك الاسم واللقب.

الصالح : لا افهم ما تقول !

صندغون : اردت ان تدفع عن مملكتك ، وتحمي دينك .. اليس كذلك ؟

الصالح : لو كنت مكاني .. اما كنت ستفعل الشيء نفسه ؟

صندغون : الرجل العاقل يا ركن الدين هو الذي يعرف كيف يزن الامور .. يجمع ويطرح .. ويحسب الخسائر والارباح ثم يقرر .. ما من احد ابتلي بنا واختار ان يقف في وجوهنا الا انتهى به الامر الى الخسران .. كان يجب ان تعرف ذلك جيدا ..

الصالح : انني استحلفك يا صندغون ، لو كنت في مكاني ماذا كنت فاعل ؟ ان الامر ليس فيه خيار ، والرجل الذي لا يدفع عن ارضه ودينه ليس برجل ..

صندغون : دعنا من هذا ، وقل لي بصراحة ، هل كان في نيتك ان تتسلل اليهم مرة اخرى ؟

الصالح : من ؟!

صندغون : (مشيرا الى الغرب) من غير المماليك ؟

الصالح : لو اردت ان اذهب اليهم لذهبت .. ولكن ما الجدوى وانت ترى ما فعلتموه بمدينتي واصحابي ؟

صندغون : (كمن يتذكر) لقد اراد قائدك علم الدين ان يفعلها في اليوم الثاني او الثالث لدخولنا .. لا اذكر .. فماذا كانت النتيجة ؟ قل له يا تكودار ..

تكودار : (ضاحكا) انه مصلوب الان عند باب سنجار .. ينتظر نجدة المماليك !!

الصالح : (بحزن) في الايام الاولى ، كان ثمة مبرر ما للذهاب .. اما الان .. (يتنهد) رحمك الله يا علم الدين ، لقد كنت غاضبا علي لانني قبلت امان المغول !

تكودار : ليس من مصلحتك يا ركن الدين ان تتحدث في هذه المسالة ..

الصالح : (محاولا ان ينتزع ابتسامة) لانها اوضح من ان يتحدث عنها احد (يلتفت الى صندغون) لماذا يا صندغون ؟ الم نتفق على كل شيء ؟ الم نفتح لكم الابواب على مصاريعها ؟ هل كان ثمة ضرورة لهذه المجزرة التي اتت على ارواح النساء والاطفال والشيوخ ؟ لقد خرجوا يا صندغون مطمئنين الى وعدك .. اما المقاتلون .. ماذا اقول ؟ لم يعد بمقدورهم اخيرا ان يحركوا ايديهم .. وانت تعرف ذلك جيدا..

صندغون : (مصعرا خده) كنت اريد ان اجعلها تذكرة للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها كي لا يعودوا لمثلها مرة اخرى !

الصالح : هذا حق ايها القائد ..

صندغون : ماذا تقصد ؟

الصالح : بعد اليوم .. مجنون من يثق بكلمتكم ..

صندغون : (صارخا) كفى يا ركن الدين ..

الصالح : الست انت الذي اردت ان تقول هذا ؟ ان الافعال تتكلم يا صندغون ، بل انها وحدها التي تتكلم ..

الحافظي : (يتقدم من صندغون ، ينحني ، ويهمس شيئا في اذنه)

صندغون : لا يا زين الدين .. انها الاوامر على اية حال ، وعلي ان انفذها .. (يتراجع الحافظي) ركن الدين ..

الصالح : (مطرقا لا يرد)

صندغون : لقد نسيت ان تسألني عن امر يهمك كثيرا .. يبدو ان هزيمتك قد انستك اشياء كثيرة ..

الصالح : لا يا صندغون .. فانني ما نسيت شيئا .. وانني اعرف جيدا عم تتحدث .. ولكن المصيبة اذا عمت ، وجد المرء نفسه يتجاوز خصوصياته .. اموره الصغيرة ..

صندغون : (باستفزاز) حتى لو كان ابنه ؟!

الصالح : (بحزن) بكل تأكيد .. لقد غسلت يدي منه ، ماذا ابقيته عندكم وعدت الى الموصل .. بل قبل ذلك بكثير .. لحظة وافقت على تسليمه اليكم ..

صندغون : (وهو يمسد لحيته) ولم اذن ؟

الصالح : الآن تسألني عن ذلك ؟ كانك لا تعرف ما الذي دفعني اليه ؟ لقد كانت مدينتي يا صندغون اعز علي من كل شيء ..

صندغون : هذا صحيح ، فلو انك قدرت على ان تمد نظرك جنوبا ، لرايته جيدا هناك .. لقد فعلنا ما يشبع هذه الحاجة في نفسك (ينظر الى افراد حاشيته بخبث) قل له يا صدر الدين !

التبريزي : (وهو يمط كلماته) قسمناه .. قسمين ..

الصالح : (يجفل ويهم بالكلام ثم يؤثر الصمت ، ويطرق) ..

التبريزي : بالتساوي تماما يا ركن الـ ..

صندغون : (ضاحكا) ثم ماذا ؟

التبريزي : شقة .. مصلوبة .. في الجانب الايمن .. واخرى .. في الجانب .. الايسر .. من النهر !

صندغون : ارأيت ايها الـ .. ايها الملك .. كما اردت تماما .. جعلناه قربانا للمدينة التي احببتها اكثر من أي شيء ، وزرعنا القربان بالعدل تماما .. نصف هنا .. ونصف هناك ..

تكودار : وها انك ترى كم نحن عادلون ؟ قائدك علم الدين ينتظر في باب سنجار قدوم المماليك دون ان يستفزه احد .. وابنك عند باب الجسر يفدي بجسده الغض جانبي المدينة .. اننا ..

الصالح : (يصرخ) كفى ..

تكودار : (يتحرك للرد على الصالح) ..

صندغون : دعه يا تكودار .. دعه .. فان حسابه لم يحن بعد ..

الصالح : (يتفكر) اتدري يا صندغون لماذا قاومت الشهور الطوال ؟

صندغون : (بغضب) ها انت ذا تعود الى المسالة التي اصبحت بحكم المنتهية

الصالح : أبداً يا صندغون .. انها ليست منتهية كما تتوهم .. لقد قاومت ليس من اجل حماية هذا الطفل وحده ، ولكن من اجل اطفال المسلمين كلهم .. كنت اعرف جيدا انكم اندفعتم في العالم ، ليسوا كفاتحين يملكون في اللحظات الصعبة القدرة على الاختيار .. ولكن .. اتدري .. لقد اكتسح المدينة منذ اسابيع ، الوباء الذي لا يعرف كيف يميز بين رجل او طفل او امراة .. بين مقاتل ومسالم .. لا يملك خياره وهو يحوم فوق الرؤوس لكي يقطفها .. استطيع ان اقول يا صندغون انكم لا تختلفون عنه بشيء .. بم ؟ إذا كنتم انتم ايضا تجتاحون بالتعميم نفسه .. بالرغبة الصماء في القتل ، جماعات الناس ؟! على اية حال فانني لست وحدي الذي يقول هذا وبمقدورك ان تسأل آلاف المسلمين الذين اجتحتم ديارهم ، ولسوف تتلقى الجواب اليوم ، وغدا ، وبعد غد ، كضربات تتنادى في المدى بين المشارق والمغارب .. انه الوباء !!

صندغون : (وهو يتحسس سيفه) كفى .. والا ..

الصالح : ساسكت .. بكل تاكيد .. ولكن ما فعلته مدينتي معكم سيظل يتكلم .. يصرخ .. حتى يقلق صراخه وجدان الناس .. سيعلمهم كيف يحصنون انفسهم ضد الوباء .. يومها لن يكون لكم متسع في هذا العالم .. اعرفت لماذا قاومت الشهور الطوال ؟

تكودار : لقد طفح الكيل ايها القائد .. فماذا تنتظر ؟!

صندغون : (بخبث) ليس ذلك بيدي يا تكودار ..

تكودار : (بدهشة) ماذا تقصد ايها القائد ؟

صندغون : (يجيل عينيه في اصحابه بزهو) سنصطحبه الى هولاكو .. لكي نزف اليه البشرى، ونمنحه الفرصة لكي ينتقم بنفسه .. تلك هي اوامره يا تكودار .. لقد بلغني ان غضبه على هذا الرجل (يشير اليه بازدراء) جاوز كل حد (للتبريزي) اليس كذلك يا صدر الدين ؟

التبريزي : بكل تاكيد ايها القائد .. انه لا يرتاح لهذا الصنف من المسلمين ..

صندغون : هذا واضح طبعا .. انهم يقفون بوجه ارادته ويعرقلون مهمته الكبرى ..

الحافظي : حجرات عثرة على طريقه الطويل الى حافة العالم ..

صندغون : لكننا نعرف كيف نزيحها في الوقت المناسب لكي يمضي سيدي الى هدفه .. اليس كذلك ؟

القادة والحضور جميعا : بكل تاكيد ايها القائد ..

صندغون : صدر الدين !

التبريزي : سيدي !

صندغون : لنتهيا للرحيل هذا اليوم بالذات .. بعد ساعة او ساعتين اريد ان يكون كل شيء جاهزا .. هل فهمت ؟

التبريزي : (ينحني وهو يغادر المكان) كما اردت ايها القائد ..

صندغون : (لتكودار) احتجزه يا تكودار هنا ريثما نرحل ..

تكودار : (ينحني ويتجه مع اثنين من جنده لاحتجاز الصالح) هيا ايها الرجل .. هيا ..

الصالح : (وهو يغادر معهم المكان) ان لله وانا اليه راجعون ..

(تعتيم)

الراوي :

بعد اقل من شهر وصل الجيش المغولي بقيادة صندغون الى حيث يقيم هولاكو في همذان ، وبصحبته الملك الصالح ركن الدين اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ .. كان هولاكو غاضبا جدا عليه ، فطلب ان يدهنوا جسمه بسمن الاغنام ، ثم يلفوه باللباد ويحكموه جيدا بالحبال ويلقوا به في شمس الصيف القائظ .. فاستحال السمن بعد ايام الى ديدان اخذت تتكاثر وتتكاثر ، وهي تلتهم جسم الرجل الذي اختار ان يجابه الوباء ، حتى فاضت روحه بعد شهر من ذلك البلاء .. رحمه الله ..

(ستار)